لست ناقدا، فهذا شرف لا أدعية، وإذا كان اتهاما فلا أنكره مجاملة للسادة النقاد! وهاأنذا فى موقف بين الشرف والاتهام بعد أن طلب منى الأستاذ نبيل أباظة التحكيم فى مسابقة أخبار اليوم للقصص القصيرة، واختار من بين القصص المشتركة فى المسابقة، عشر قصص لينشرها فى هذا الكتاب.

قبلت بغير تفكير طويل، لأنى سعيد بمساهمة مؤسسة كبيرة كأخبار اليوم فى النشاط الثقافى والابداعى، ولأنى أتمنى لو أن مؤسسات مالية وصناعية كبيرة تحذو حذو أخبار اليوم وتساهم فى هذا النشاط لنتحرر من بيروقراطية تشرف وتتدخل فى ميزانية الدولة ولا تكاد تفهم أن للابداع الفنى والأدبى دورا فى بناء الانسان فى المجتمع، وأثرا مباشرا فى عملية التنمية ودفع عجلة الانتاج ومواجهة مشاكل اجتماعية بالغة الخطورة من أهمها مشاكل تنظيم الأسرة. ان خبراء وجهابذة وزارة المالية يلغون بجرة قلم مشروعات لترجمة الكتب ومازلت أعانى كمقرر للجنة للتفرغ فى المجلس الأعلى للثقافة من شطب اعتمادات منح التفرغ لأن السادة خبراء البيروقراطية لا يرون سببا لصرف مليم واحد على أديب أو رسام يمسك بقلم أو فرشاة ويشخبط على الورق! ولأن الابداع الأدبى والفنى ليس طعاما يأكلونه أو شرابا يشربونه أو لباسا يلبسونه، وهم يفكرون بنفس العقلية التى تأمر بقطع أشجار الحدائق لبيع أخشابها، وتحويل الحدائق إلى مبان، ويوفرون مصاريف علاج

التلوث ولا يهتمون بتلويث ميـاه نهر النيل أو قذارة المدينة أو تسميم هوائهـا. انهم يجهلون أن الفن الجميل والذوق الرفيع بـالنسبة لعقل الانسان ومعنـوياته كـالأوكسجين النقى بالنسبة لـرئة الانسان وبما فيه جسده. وعلماء التاريخ والاجتماع يـؤكدون لنا أن ازدهار الآداب والفنون يواكب ازدهار الحضارة والعمـران، وانحطاط الابداع يواكب عصـور الانحـلال والاضمحـلال والتفسخ الاجتماعى. والعقـول المتفتحـة بـالعلـوم والفنـون هى وحـدهـا التى تستطيع التصـدى لمسئـوليـات التنمية فى عـالم تسيطـر عليـه أجهزة اتصـال وتتـدفق المعلومات كـالطوفان الهادر. ولابد من استجابة ذكيـة سريعة، ولابد من اختيار وقرار فى الوقت المنـاسب، ولا مجال لانتظار قرارات بطيئة تصعد وتهبـط سلالم البيروقراطيـة دون أن تبصر أبعد من مـواطىء أقدامها.

الاهتمام بتنمية روح الخلق والابـداع والابتكار، جـزء لا يتجزأ من تنمية المجتمع كله، بل مساهمة ـ أيضـا ـ فى النشاط الثقافى العالمى الذى أصبحت المساهمة مطلبا لابـد من تلبيته حتى لا تنعزل وتتخلف وتسقط فى قـاع لا نجـاة منـه. وإدراك هذه الحقـائق ليس تـرفـا، إذ يتوقف على هـذا الادراك، وسلامتـه، مستقبل الوطن والأمـة بلا أدنى مبالغة.

لـذلك أنتهز هـذه الفرصـة لتحية الأستـاذ الكبير إبراهيم سعـده، لاهتمامـه بهذا المشروع الثقـافى وأطـالبـه بأن يفكـر فى المسـاهمة فى مشروع تفـرغ الأدبـاء والفنـانين وأن يـدعـو المؤسسـات الماليـة والصناعية أن تساهم فى استثمار مـواهب كبار الفنانين وأن تمنحهم الفرصة لتحقيق أحلامهم فى الخلق والابداع الـذى هو ثروة حقيقية لنا وللانسانية جمعاء.

وفى يقينى أن وزارة الثقـافـة لا يخطـر ببـالها أن يكـون النشـاط

الابداعى مقصورا على مشروعات الـوزارة والقطاع العام، والدليل على ذلك أن فـاروق حسنى وزيـر الثقـافة طلب تعـديل لائحـة التفـرغ، ليتحـول الى استثمار للمواهب وليس معـاشات وإعـانات، وجـاء فى اللائحـة الجديدة أن تمويل منح التفـرغ قد يكون بمسـاهمة الهيئات والجمعيات ومؤسسـات القطاع الخاص. وليس هذا بدعـة فى تاريخنا الثقافى، فمؤسسات بنك مصر التى أقامها طلعت حرب هى التى أقامت ستوديو مصر للتصوير السينمائى.

البحث عن معيار للاختيار

اشترك فى مسابقة القصة القصيرة لأخبـار اليوم مئات المتسابقين، وبعـد تصفية أولى، استقـر الرأى على اختيـار ثلاثـة وستين «اسما» لكـاتب وكـاتبـة، كتب أغلبهم مجمـوعـات قصصيـة بمعـدل خمس قصص. أى أن الاختيـار الأخير جاء بين حـوالى ثـلاثمائة قصـة. كـان أصحابها مـرشحين للفوز بجـائزة النشر، وأرى نشر أسمائهم جميعا تحيـة لهم، واعترافا بأنهم أصحـاب موهبـة ـ ربما تحتـاج إلى بعض الصقل أحيانا ـ لكنهم جميعا كتاب قصة بكل المقاييس.

وهنا نصل إلى مأزق الاختيـار، وهو مأزق تورطت فيـه شخصيا، وأصبحت مسئولا عنـه، ولا أملك غير ذلك! ولابد أن أتحمل سخط من لم يحصل على جـائزة، ولابد أن يحتج من لا يجد قصتـه منشورة فى هـذا الكتاب ولا يحصل على الجائزة. وربما كـان الأفضل للنجـاة من هذا المأزق أن يظل اسمى مجهولا، لأتخلص من احتجـاجات طبيعية، ومزعجة لا مفر منها!

ولقـد حاولت أن أضع معيـارا لـلاختيار نتفق عليـه، لكنى فشلت فشلا ذريعا، إذ أين نجد معيار النقد الذى يتفق عليه الكتاب أو النقاد. ومن الـذى يملك أن يقول أن أسلـوب هذه القصة هـو الأفضل، أو أن هـذا النوع من السرد هـو النمـوذج، بل من يستطيع أن يـرشدنـا إلى

الحدود الفاصلة بين القصة والرواية القصيرة، أو بين القصة وقصيدة الشعر أو المسرحية أو التحقيق الصحفى!

حطمت التيارات الأدبية كل الحدود والقيود والسدود منذ اجتاحت عالم الثقافة منذ الحرب العالمية الثانية فى منتصف هذا القرن العشرين الذى يحتضر الآن فى سنواته الأخيرة. كل شىء أصبح مباحا فى الابداع بعد أن كان مباحا فى الحرب والحب! وانطلقت المصطلحات كالصواريخ فى سماء الابداع. سيريالية وعبثية وشكلية ووجودية فلما اعتاد الناس عليها ظهرت الحداثة ثم ما بعد الحداثة، والبنيوية التى هللوا لها ثم هجروها ليتحدثوا عن «التفكيكية»، فمشاريع البناء تحولت إلى مشاريع هدم وتفكيك. وكل مصطلح من هذه المصطلحات وراءه جيش من النقاد دبجوا آلاف المقالات والكتب، ولو كنت أتبع مدرسة وأتبنى مصطلحا من هذه المصطلحات، ما كنت - فى تقديرى - كتبت قصة أو رواية واحدة!

ولذلك يختلف حديثى عن القصة عن أى حديث آخر، فأنا لا أكاد أعرف مسبقا ما الذى سوف أكتبه عندما أشرع فى كتابة قصة أو رواية. قد تكون لدى أفكار وخواطر ومجموعة من انطباعات وردود أفعال لمواقف صعبة صادفتنى، أو تحديات على المستوى الشخصى أو العام اعترضت حياتى. لكن كل هذا يظل يحوم حولى، قد يثيرنى وقد يستفزنى، يقلقنى أو يؤرقنى لكنه لا يتحول إلى عمل أدبى - قصة أو رواية - لأنى عندما أشرع فى الكتابة وأمسك بالقلم، وتتحرك يدى فوق الورق - الآن أحاول الكتابة بالكمبيوتر وبالضغط بالأصابع! أدخل عالم الكتابة، وأخرج فى نفس اللحظة من تجارب الواقع وتحدياته، بما فيها تجارب الحياة والموت، لأنى أسافر رحلة الفن والخلق فلا أكاد أعرف ما سوف أتعرض له من مفاجآت، وما سوف يقابلنى من كائنات لا أعرف كيف أحددها، لكنها تطرح

على خيالات ورؤى، وتطرح أسئلة كالألغـاز لا أتوقعها، فإما أن أجيب وأواصل الـرحلة، أو أخفق فتنتهى الـرحلة بـالاخفاق والاحبـاط، أما تجارب الواقع وتحدياتـه، والخبرات التى اكتسبتها، فهى ليست أكثر من أوراق جواز السفـر الذى به تأشيرة العبور الى عـالم القصة. وهو عالم لا صلـة له بـالأسباب التى دفعت إليـه، فغير صحيح أنى أسجل مشـاعر قـديمـة مكبوتـة أو أسطـر كلمات على الورق هى اعترافـات ومواجهـة مع النفس، أو محاولة للتخلص من تصرفـات ضايقتنى أو أزعجتنى. كما أن كتابـة الأدب الصحيح ليست للانتقـام أو التشفى، أو للهرب من مـواجهة مخاوف أو السيطرة عليها، وقـد يتحدث النقاد فى هذه الأمور، ويختلفـون أو يتفقون، ويسترشدون بفرويـد للغوص فى أعماق الكـاتب أو أعماق النص. أو يسترشـدون بماركس لتحـديـد الصراعات وتفسيرها وتبريرها. وقد يحلقون فى طائرة لمشاهدة النص الأدبى من خـلال المنظر العـام للبيئـة التى ظهـر منها. لكن الحقيقـة بـالنسبة لى، هى أنى لـو حملت معى إلى عـالم القصة، أيـة مشاعـر شخصيـة، وأية انفعـالات من عـالم الـواقع، فسوف تتعطـل الكتابـة وتفسد، لأن حـراس الفن القصصـى لن يسمحوا لى بـالمرور من عالم الواقع إلى عـالم الابداع. وغـالبا مـا اضطر للتظـاهر بـالبراءة، وبمكر أقـرب إلى مكـر الأطفـال، وكأنى فى رحلـة للعب، قبل أن يسمحـوا لى بالدخول.

وبديهى أنى لا أستطع الكتابة وفى رأسـى طنين السلطة، كأن أكتب ليرضى الـرقيب عن القصة، أو لأحصل على جـائزة، رغم أنى حصلت على جوائز! ـــ كما لا أتصور كتـابة قصـة لأهاجم فـلانا بـالذات أو لأروى قصة فلان، كما شاع أنى كتبت رواية الرجل الذى فقد ظله عن محمـد حسنين هيكل، أو أن عبدالهادى النجـار فى « زينب والعـرش» هـو مصطفى أمين، أو أن أحمد عبـدالسلام ديـاب، هـو كمال رفعت

عندمـا تولى الاشراف على أخبـار اليوم فى فترة تنظيم الصحـافة. وإذا كـان هنـاك وجـه شبـه، فـذلك لأن الخيـال القصصى يتحـرر من الوقائع، لكنه يكشف ـ ولا أدرى كيف يحدث هـذا ـ عن جوهر الواقع. وهو أقوى مـن الوقائع وأصدق فى تصـوير جوهر العـلاقات، وعندئذ يكمل القارئ ـ من عنده وبخيالـه الشخصى ـ رؤيته التى يستوعب بها جوهر الواقع.

ولقـد كـان رأيى دائما، ان الـذى يـريـد أن يكتب داعيـا لمواقف سيـاسية يـؤمن بها، عليـه أن يكتب مقـالات سيـاسية أو اجتماعيـة واضحة، ولـذلك حرمت نفسى لست سنوات من كتـابة أى عمل أدبى طوال فترة رئاستى لدار التحريـر، ولا أدرى ماذا يقول النقاد فى ذلك، ولكنى أشعـر أن من واجبى أن أشرح موقفى للـذين شاءت الظـروف أن أختـار عشرة قصص من بين قصصهم، لأنى لا أملك إلا أن أكـون ما أنـا عليه، ولا أستطيع أن أجـارى النقاد وهـم يفسرون ويشرحون، ويعيدون تـركيب الكلمات والجمل، ويدخلون الكـاتب أو النص الذى كتبه فى قوالب مجهزة لاختبار نظـريات ومناهج فى النقد. وفى رأيى أن مجرد الاحساس بوجود مثل هـذه القوالب يكتم أنفاس الكاتب ويكتم حيـويـة النص الـذى يكتبـه، ومن حسن الحظ أن النقـاد يختلفـون ويخرجون علينا كل يوم برؤية جـديدة. ولقد حاولت ذات مرة أن أقنع أحد نقادنا الكبار بأن المهم هو العلاقة المباشرة بين الكاتب والقارئ، فأدهشه جهلى بنظـريات النقـد، وقال ان النقد هـو الجسر الذى يعبر عليـه القارئ إلى الكـاتب، أو الكـاتب إلى القـارئ. فقلت له ان كلمـة «جسر» فيها مبـالغة، وربما كلمـة «التعريف» أصح وأصـدق. فكبار النقاد يتولون عملية تعريف القـراء بالمواهب الابداعية وبعد ذلك يملك المتلقى حـريتـه المطلقـة، ليرى العمل الابـداعى كما يشـاء، والنـاقـد الانجليزى «جـونسون» اكتشف لـلانجليز شكسبير لكنـه لم يفرض

عليهم رأيــه فى شكسبير، والنــاقـد الفــرنسى «رينــان» قــدم لنــا «تــورجينيف» الروسى فـرفض أن يحدد ملامح معينــة له، وقــال أن «تــورجينيف» مــوهبتــه أكبر من أن تكــون لــه شخصيــة محددة، و«ســانت بيف» قـدم لى بلزاك الكـاتب الـروائى والصحفى والـرجل الذى يـرتدى «الروب دى شامبر» والـدكتور طه حسين الناقـد قدم أبـا العلاء المعـرى واكتشف الأديب توفيق الحكيم.. وبعـد أن استمع الناقد الكبير لكلامى، هز رأسه وقــال ان ما سمعه هو «نظرية» أخرى من نظريــات النقد، لأنه لا مفر مـن الخضوع لنظرية نقـد! فاعترضت وقلت له محتدا فى غيظ أنه يدافع عن وظيفته!

موت المؤلف.. وموت القارئ !!

ويبدو أن بعض النقــاد ضايقــة مواقف ممــاثلة من الكتــاب الذين يصرون على وجودهم وعلى اللقاء بالقارىء مباشرة. ولا يهتمون كثيرا بما يقـوله النقــاد. فأعلنوا أن الكــاتب الــذى يسعى مباشرة للقــارىء لا يقدم نصــا أدبيا، بل يقـدم سلعة يبحــث لها عن مشتر. فهو تــاجر وليس مبـدعا. وضربـوا الكاتب ضربــة قاضيــة فأعلنوا أن النص هــو المهم. بدلالــة لغته أو دلالة صراعــاته الطبقية. والكــاتب بعد أن ينتهى من كتابة النص لا معنى لتدخله ووصل الأمر بهؤلاء النقاد إلى إعلان موت المؤلف. مات وشبــع موتا غير مأسوف عليه، بعـد أن ترك النص الذى يستولى عليه الناقد ويفعل به ما يشاء.

كان مـوت المؤلف عــلاجا ناقصــا. فهناك القــارىء الذى يتـدخل ويعلن رأيه، وكـل قارىء عالم بـذاته، يقـرأ على هواه ويفسر مــا يقرأه كما يشاء. وهذا يعارض تماما النظـريات التى ينادى بها النقاد، وهى أحيانا نظريات سياسية يحميها رقباء . وهى أحيانا نظريات للكشف عن حالــة المجتمع ويتولى تطبيقهــا أساتــذة أكاديميـون يعملون فى أجهزة المخابـرات، ويدرسـون النصوص الابداعيــة فيما يشبه عمليات

التحليل التى يقوم بها الانسان فى المستشفى ليعرف حالته الصحية.. وهكذا ارتبط النقد بالسلطة وبالرقابة وبوسائل السيطرة والهيمنة على المجتمع، ومعرفة مجتمعات الجيران والأعداء. وانعزل النقاد عن القراء، وأعلنوا أن القارىء مات!

وهكذا استولى النقاد ومن ورائهم أجهزة كثيرة فى السلطة على النصوص الأدبية، وعزلوها عن المؤلف الذى «ارتكبها» أو «القارىء» الذى يمارس خطيئة التفكير فيها وحده!

المؤلف مات والقارىء مات، وعاش ناقد النص الذى يكتب التقرير عن الوثيقة التى فيها أسرار اللغة والمجتمع. ولاشك ان هذا الذى كان يحدث فى أوربا شرقا وغربا تأثر به بعض نقادنا وبعض الدارسين فى جامعاتنا المصرية فأمسكوا بأعمالنا وفرضوا عليها ما قرأوا من نظريات. أحد الدارسين حصل على الدكتوراه من بحث فى السرد الروائى ورواية الرجل الذى فقد ظله كنموذج. فبدأ بأن أدخل الرواية فى قالب «الرواية الاشتراكية» ثم اضطر أن يكتب فى أكثر من عشر مناسبات أن الرواية «الاشتراكية» ليست اشتراكية وتخرج عن المألوف فى الرواية الاشتراكية، لكنها لابد أن تكون اشتراكية! وهناك من كبار النقاد من ضحك وسخر من هذه المحاولات، لكنى قلت لنفسى أنى لست مستعدا ــ ولا أستطيع أن أصنف القصص التى سوف أختار من بينها حسب قوالب ونظريات، وقررت أنه ليس أمامى إلا القراءة، والعلاقة المباشرة بينى وبين النص كقارىء ـ لاكناقد ــ بمعنى أن أترك نفسى على سجيتها تجذبنى الكلمات والجمل للقراءة فأشعر بالرغبة فى مواصلة القراءة، أو لا تجذبنى فأشعر بالملل فلا أواصل القراءة. وأعترف أن اللغة وإيقاع الكلمات وسلاسة السرد من العوامل التى تشجعنى على القراءة.

معـــارك قديمـــة

وتختلف اللغة فى القصـــة عن لغة التخاطب العادى، وهـذه وجهة نظـرى، ولا أستريح للابتـذال والركـاكة، وتعجبنى حيـوية الايقـاع، وأعرف أنـه ليس من السهل أن يضـع كاتب القصـة حدا فـاصلا بين اللغة الدارجة أو اللهجة العـامية واللغة الأدبية، لكنه يحاول ويتحمل مسئوليـة المحاولة، فى اختيـار الكلمات المناسبة التى هى عـلامة على الحس المرهف والـذوق السليم. وفى تـاريخنا الأدبى أحـداث جسـام ومعـارك كبرى حول اللغـة، لا نستطيع أن نتجـاهلها، ومن أهم هـذه المعـارك، مـادار بين الـدكتـور طـه حسين والأديب الكبير مصطفى صـادق الـرافعى منـذ حـوالى سبعين عـامـا على صفحـات جـريـدة السياسـة، إذ كتب طه حسين يتهم أسلوب الـرافعى بأنه «نقص أدبى لأن الكمال الأدبى يستلزم أن تكـون اللغة ملائمة للحيـاة، وهو نقص خلقى لأنه كذب.. كذب للكاتب على نفسه وعلى معاصريه»!

وكلمات طه حسين قـاسية، وكـان الرافعى يكتب بأسلـوب القرن الرابع الهجرى، ويختار ألفاظا براقـة تتوهج بذاتها وبحروفها، وكان يهتم بزخرفة الأسلوب، وينفر من التبسيط، ويرى أنه آفة انتقلت إلينا من الأساليب الأفرنجية ـ الانجليـزية والفرنسية....الخ ويرى انها قد تفتن النـاس فينسـون لغـة القـرآن الكـريم ولا يستطيعـون تفسير الأحاديث النبوية الشريفة. وكـان الرافعى يحارب ويرد على طه حسين بقسـوة ويتهمه بأنـه الرجل الـذى فتنتـه فرنسـا وجاء لينشر الفتنـة الأجنبيـة فى اللغة العـربية، وكـان يقـول لطه حسين.. ألم يأتك قـول المتنبى..

وكـم مـن عائب قـــولا صـحيحا
وآفتـــــه من الفهـــم السـقيم !

وكـان مسرح المعركـة بين طه حسين والـرافعى هو القصـة، لأنها

جنس أدبى جديد وافد من أوربا، وهى غير الحدوتة أو النادرة أو الأقصوصة، كما وردت فى كتب التراث، وكانت التقاليد لا تسمح بتصوير علاقات انسانية متشابكة بين أفراد، رجال ونساء، فى قصة مميزة يقرأها القراء وحدها، خارج الاطار الذى تدخل فيه النوادر والأقصوصات سواء فى ألف ليلة وليلة أو الأغانى أو المحاسن والأضواء أو الأمالى أو غيرهم. ولذلك وجد محمد حسين هيكل حرجا شديدا فى كتابة اسمه كمؤلف لرواية زينب عندما نشرها عام ١٩١٤. فكتب لمؤلفها «فلاح مصرى» بعد أن أيقن أنه لا يستطيع أن يمارس مهنة المحاماة بعد أن درس القانون فى باريس، ثم يشتهر بين الناس بأنه يكتب قصة عن امرأة اسمها زينب، ويهتم بها فيجعل من اسمها عنوانا لكتابه، فهذا أمر مخل بالوقار المفروض فى محام يدافع عن حقوق الناس وأعراضهم أمام المحاكم.

وروى المازنى أنه كان بمكتب هيكل فى جريدة السياسة عندما دخل عليهما شاب معمم وسأل فى خجل وارتباك عن كتاب «زينب هانم»؟ لأن الشاب الأزهرى وجد حرجا شديدا فى النطق باسم المرأة بغير أن يضيف كلمة «هانم» ليضع حاجزا أو نقابا بينه وبين زينب! هكذا كانت التقاليد فى ذلك الوقت. وكانت القصة «فتنة طارئة» وأسلوبا معيبا، شديد التبسيط، والتركيز على ما يفسد أخلاق الناس وعقولهم. ولو كان هيكل كتب كتابا فى الأدب أدخل فيه قصصا وأشعارا وتأملات، بحيث لا تبرز قصة بذاتها وينسجم الجميع ـ النثر والقصص والأشعار والطرائف ـ فى النسيج الزخرفى المعروف فى تراثنا الأدبى، ما كان هناك خجل أو عيب.

ودافع المازنى عن «زينب» وتساءل بأى لغة نكتب الحوار ـ كان ذلك منذ سبعين عاما ـ وقال المازنى «الجواب عندى أن نكتب باللغة العربية إلا إذا كانت اللهجة العامية أعون على تصوير الشخصية

وأبرزها على حقيقتها.. ثم قال المازنى أن للغة تأثير فى أسلوب التفكير والتفاتات الذهن واتجاهات النفس، فابن الصعيد والمنوفى والبحيرى، ليس تفكيرهم على نسق واحد مهما بلغ تقاربهم، فإذا أسقط الكاتب اللهجات العامية جملة، فإنه يسقط معها عاملا قويا من عوامل التوجيه النفسى ويجىء بالصورة ناقصة ألوانها غير قادرة على الكشف عن الشخصية.

وكتب محمد حسين هيكل يدافع عن لغة «زينب» عندما أعلن أنه كاتبها «الفلاح المصرى» فقال.. اللغة كساء الأدب، وهى تتطور كالأزياء فلم يبق شخص الانسان كومة من النسيج النفيس تزينها الأشرطة والتنتلات وتحملها الأحذية المرصعة، وتكسو أعلاها شعور مستعارة، وتطل من خلالها صورة وجه انسانى مختف تحت الأصباغ والألوان، بل أصبح اللباس من البساطة بحيث ينم عن خطوط الجسم وحركاته ويشف عن الحياة الانسانية حتى لقد كاد يصبح بعضها.. وصارت الحياة الانسانية هى موضع الجمال بذاتها، وليس موضع الجمال هو اللباس الذى يكسوها.

وكان المازنى جريئا فكتب مجموعة من القصص القصيرة فى مجلة السياسة ولم يتردد فى أن يسجل الحوار بلهجة عامية، بل انه كتب فى إحدى قصصه الحوار بلهجة رجل يونانى ضبط متلبسا بالسرقة ويحاول أن يتكلم بالعربية..

واندلعت معركة اللغة فى مجلة الرسالة عام ١٩٣٣ عندما نشر أحمد أمين سلسلة من المقالات تحت عنوان «تجديد الأدب» جاء فيها أن فى عصرنا الحديث نشأ قوم تأثروا بالأدب العربى القديم وحذوا حذوه، ولو خرجوا قيد شعرة منه، فلو ركبوا الطائرة قالوا ركبنا الهودج والبعير، وإذا استهلكت السيارة البنزين قالوا «رعت السعدان» أى رعت الجمال، وإذا لم يكن لهم من الأمر شىء، قالوا لا

ناقة لنا ولا جمل وهم فى الحقيقة لا ناقة لهم ولا جمل.

ورفض الدكتور عبدالوهاب عزام دعوة أحمد أمين للتبسيط وقال انها تؤدى إلى تمييع الأخلاق بينما المفروض هو أن يتعود الشباب على الخشونة والصلابة وذلك يتحقق بالتعود على الألفاظ العربية الخشنة!

وعندما اشتركت فى مناقشة اللغة فى الخمسينيات، كان الجدل بين العامية كاتجاه يسارى والفصحى كاتجاه يمينى أو رجعى.. وأرسل لى الدكتور عبدالوهاب خطابا من نيودلهى وكان سفيرا لمصر فى باكستان، يعاتبنى لأنى استشهدت برأيه ضد أحمد أمين، وهذا لا يجوز ــ من وجهة نظره ــ لأن أحمد أمين توفى الى رحمة الله! (نصيحة سومرست موم!)

●●●

تذكرت هذا التاريخ ـ والحديث فيه يطول ــ عند استعراضى للقصص لأختار من بينها، وسألت نفسى ماذا يكون الحال، لو أن هيكل والمازنى وطه حسين وأحمد أمين كرواد خاضوا معركة تحرير التعبير بالكلمة وحققوا فيها نجاحا كبيرا؟ وسألت نفسى ماذا يكون الحال لو أن غيرى هو الذى قام بالاختيار، وبيننا فى مجتمعنا حتى يومنا هذا من يرى أن القصة فتنة، أو يرى أن اللهجات العامية ليست أدبا بل انحلالا وميوعة، وبيننا من ينفر من الذوق والحساسية الأوربية، وبيننا من يرى القصص وثائق وتقارير عن المجتمع وبيننا من يهتم بالنص ويعلن موت المؤلف أو موت القارىء أو كلاهما. ولو أردت أن أعدد الاحتمالات ما توقفت لأنها غير محدودة، ولابد من احترام تعدد الآراء، والاتجاهات، ولابد ـ أيضا ـ أن أنوه بأن اختيارى للتحكيم فى هذه القصص لابد أن يكون له تأثيره المباشر. ولقد حاولت ـ بقدر الامكان أن أشرح بعض ما فى نفسى نحو عملية الكتابة واللغة،

ولا أجد أمامي فى نهاية الأمر إلا أن أختار ما كان أكثره تشويقا ـ نسبيا ـ وما جعلنى أواصل القراءة بغير ملل منذ السطور الأولى.

وأذكر بهذه المناسبة حكايتى مع الروائى العالمى المعروف سومرست موم.. وقد قابلته فى الخمسينيات ـ عام ١٩٥٤ على ما أظن ـ فى جناحه الخاص بفندق سميراميس المطل على النيل. وكنت مبتدئا فى كتابة القصة القصيرة ولم أكتب الرواية بعد.. ودار بيننا حوار حول القصة بعد أن وجه الى سؤال عن أسلوبى وكيف أكتب القصة. فلما استمع الى، صاح مستنكرا ما سمعه وقال.. هناك رجل واحد فى العالم أيها الشاب يستطيع أن يكتب بالأسلوب الذى تتحدث عنه، وهذا الرجل اسمه «انطوان تشيكوف» وأنت بالقطع أيها الشاب لست انطوان تشيكوف! واختلفت معه. شاب مبتدىء يعاند عجوزا مخضرما وهو غالبا ما يكشف عن صراع حياة أو موت لكليهما. بين رغبته فى إثبات الذات ـ رغبة تحافظ على الذات وتصونها من تمرد القادمين الجدد. ومع ذلك استمعت الى واحدة من نصائح موم مازلت أثق فيها، وهى أن القصة لابد أن تجذب الانتباه، ولو كنت تحكى القصة بين ناس حول مائدة طعام شهى فلابد أن تجذبهم وتلهيهم عن الطعام ليتابعوا القصة، ومازلت أبحث عن هذا التشويق بين الكاتب والقارىء وأرى أنه حجر الزاوية فى بناء العلاقة بينهما، وأن عملية الابداع لابد أن تكمل ـ كما يقول نيتشه ـ بوجود شاهد. كما أن عملية الخلق عند الله عز وجل اكتملت بوجود الشهود الذين يشهدون على الخلق ويعبدون الخالق.

مزاج شخصى.. ولكن !

وتختلف درجة التشويق فى القصص التى وقع عليها اختيارى، ولكنها كانت أكثرها تشويقا، وقد يجد غيرى ـ من كبار النقاد ـ أعمالا امتازت بكثافة الأسلوب وتراكم المشاعر والصور فى جمل مركبة، وقد

يجد آخرون قصصا لها دلالات ايديولوجية يفضلونها ويبحثون عن أهمية النـص فى دلالته السياسيـة والاجتماعية، وليس فى التشـويق ـ لكن كل هذا ـ بصراحة تـامة ـ لم أتـوقف عنده لأن القصـة عندى فى المقام الأول حكاية أو حدوتة تشدنى إلى قراءتها. ومع ذلك تبينت بعد أن أكملت عملية الاختيـار انها شملت أنواعا وأساليب متعـددة. بينها القصـة الأقرب الى الشعـر، والقصـة الأقـرب إلى المقالـة الصحفيـة السـاخـرة، والقصـة التى لها حبكـة، والقصـة التى تعبر عن لحظـة تنـويـر أو فهم. أو شـعور خـاص فى زمـن معين ومـكان معين. والقصـة التى تـدخل بنـا عـالم الأحـلام أو الكـابـوس، أو التيـه أو المطاردة، فـلا تخرج منه. وكـذلك اختلفت اللغة واللهجـات وتعددت، ولكنهـا جميعا شجعتنى على القـراءة ولاشك أن مـزاجى الشخصى كقارىء كان له تأثيره، وهـو مزاج قد يتغير بعد فترة تطول أو تقصر، وكثيرون يتهمـوننى بأنى صاحب مـزاج متقلب. لكنـه على أية حـال مزاج كاتب يحب كتابة وقراءة القصص والروايات!

فتحى غـانم

مثل قزم وسط عماليق ، يقف بـرج الحمام القديم .. تتطلع عيـونـه الكثيرة بـدهشـة وتـوجس إلى الأبـراج الشـاهقات من حـولـه ، تعلوهـا أطباق مقعـرة كبيرة ، تشرئب نحـو شتى الجهـات ، وهـوائيـات استقبـال ، ومكيفـات هواء تبرز مـن الجدران .. يبدو بـرج الحمام كنصب شـاذ ينتأ من سطح البيت العجـوز ، القـابع مستوحشا ، جافلا ، عليه غربة وسهوم الأشياء القديمة.

يطوف إبـراهيم بطلول الحديقـة فى الصباح ، مثلما يفعل كـل يوم منذ رجع من السفـر .. يتحرك كـدمية حول كـوخ بقاع واد ، تحاصره الجبال العمـلاقة وتكاد تطبق عليه .. يشـاهد شجيرات الطماطم التى زرعهـا بيديـه فى الحقل الصغير وشجرة الـرمان العـارية الفـروع .. يحدق فى شكل تخلف عن سقوط طبقـة البياض ، وفى الشروخ ، جراح البنايات القديمة ، التى تزيدهـا الأيام عمقا واتساعا .. يتأمل الأحجار الجيريـة الرطبـة ، أساس البيت ، ومن فـوقهـا قوالب الطـوب النيىء الآخذ فى التحلل والتآكل .

ارتقى إبراهيم فى الدرج الخشبى إلى السطح .. راح يهدهد بين يديه الصينيـة النحـاسيـة ذات الحافـة المنقـوشـة ، وينثـر الحب ، وعلى وشـوشـات الحب يقبل الحمام .. تحط على كتفـه حمامـة ، وأخـرى تصطفى قمة رأسـه مهبطا .. تصطفق الأجنحة الفـرحة وتصطخب .. يلقط الحمام من الأرض ، ومن كفه المبسـوطة بـالحب والحب .. ينثال الماء إلى الـوعاء الخزفى ، وينهل الحمام ، وينـزل كى يستحم .. ينفش

ريشـــــــه نشوان وينتفض .. يرقد باسطا الأجنحة لضوء الشمس ، وتأتلق الرقاب بألوان الطيف .

أسنـد إبراهيـم السلم الطويل إلى بـرج الحمام ، وصعـد يتفحص العيـون .. نزل وفى عينيـه فـرحة طفل .. أحضر الخشب والمسـامير ، وشرع يسد فروج حجرته الخشبية التى أقـامها على مقربة من الفرن المتشقق الخامـد منذ زمن طـويل .. أطل من نافـذة الحجرة على بـرج الحمام ، ينصت إلى الهديل ، ويشـاهـد طقوس الغـزل .. استلقى على ظهره فوق السجادة البالية ، وأخذ يشاهد السماء من كوة السقف ..

« ما تـزال تجثم فوق صدرى السحـابة القاتمة ، المشبعة بـدخان النفط المحترق ، ودخان القذائف والقنابل ، وغبار البنايات المتهاوية .. لازمتنى طـوال رحلـة العـودة .. لماذا تطـاردنى ولا تـريـد أن تـزايل سمائى؟!»

تحول إلى مشاهـدة الحمامة الغريبة الـوافدة .. راعه وجـود حلقة معدنيـة حول سـاقها .. كـانت تقف على حافـة النافـذة فى ألفة مثيرة للدهشـة .. لحق بها ذكر بلون «نوار الفـول» .. يناغيها .. يدنـو منها منتفخ الصدر هـادلا .. استجابت لنداء الحب بعد قليل صـد وتدلل .. أخذا يتوشـوشان ، ثم رقدت مستكينة ، خافضة جنـاحيها ، وارتعشا من نشـوة .. لم تجفل الحمامـة الـوافـدة أو تنفـر من يـد ابـراهيم المتـدانيـة.. استكـانت فى راحتيـه ، وفحص السـاق .. كـانت الحلقـة المعـدنية تنغـرس فى اللحم ، يحوطهـا ورم طفيف .. حـاول انتزاعهـا فتألمت الحمامة .. كانت الحلقة قد انـدمجت وصارت جزءا من تكوين الساق .

نثر ابراهيم وجبة اليـوم الأخيرة للحمام قبيل الغروب ، وبينما كان يحدق فى الأبـراج ، وقعت عيناه على سيـدة تتمدد على مقعـد بإحـدى الشرفات ، وقد انحسر الثوب كاشفا عن ساقيها البضتين ، وعلى الرغم من اغضـائه السريع ، فقد بدا عليـه الاضطراب والخجل ، فهرول نازلا

لاقى جيهـان ابنة شقيقتــه أمام الباب .. كـانت تحمل كتـابا ودفـاتر وتتـدلى من كتفهـا حقيبة .. سبقتـه إلى الـدخول صــامتـة . دخل على شقيقته الجالسة على أريكـة الصـالة العتيقة فى مواجهـة الباب ، ترتق ثوبا بيدها ، وقد أرتدت جلبـابا داكنا ، وعصبت رأسها بمنديل أسـود ، يلوح من تحته بعض الشـعر الأبيض .. قال لها فى فرحة :

— الحمام يتكـاثر .. فى كل عين من عيـون البرج حمامة راقـدة .. هناك بيض كبير على وشك الفقس .

ابتسم وجهها الشاحب :

— لابد أن الحمام المهاجـر قد آب إلى برجه القـديم ، بعد أن أحس بالأمان .. منذ رجعت من السفر يا ابراهيم ، وأعداد الحمام تزيد .

التفت شقيقـه محسن الذى يتـابع مباراة كـرة قدم فى تليفـزيون صـغير مشوش الصـوت :

— هذا ليس زمن الحمام .

ارتفع صوت جيهان التى تغير ملابسها فى الداخل :

— خالى وماما ليس لهما سيرة غير الحمام ، وشجـرة الرمان التى لم تعد تورق ، وحقل الطماطم !

برز وجـه شقيقه محمود من بـاب الحجرة الجانبية ، وهــو يسده بمرفقيه

— أتظن أننـا يمكن أن نجمع ثـروة من تـربيـة الحمام ، وزراعـة الطماطم فى الحديقة ؟

جال ابراهيم بنظراته بين شقيقيه ، وجيهان :

— لماذا تكرهـون الحمام ؟! كانت أمكم تحبـه ، وتراه فى منـامها .. وجاءت من القرية تحتضن زوجـا من الحمام ، تكاثر ، وصار أسرابا ، تحلق فى السماء ، وتـرفـــرف على البيـوت والجيران الطيبين .. الحمام

موجود فى هذا البيت قبل أن توجدوا أنتم ، وكان البرج معلما من معالم الشارع ، وكان الناس يسترشدون به ، ويسمون بيتنا بيت الحمام .

صاحت جيهان :

— وأين تلك البيوت ؟ وأولئك الجيران الطيبون ؟ ألا ترى الأبراج الجديدة ، وسكانها الذين يركبون السيارات ، ويمشون على السيراميك ، ويعيشون فى الحجرات المكيفة ؟ أنا أخجل من برج الحمام ، ومن هذا البيت ، أمام زميلاتى فى الجامعة .

أسكتتها نظرة من أمها .. ورنا ابراهيم إلى شقيقته مستهديا بعينيها مستأنسا :

— كريمة .. سيعود بيتنا كما كان بيت الحمام ..

أجابت بصوت تخامره ارتعاشات الشك :

— الحمام بخت يا ابراهيم .. ألم تكن تسمع أمك تقول : عايز بختك يبان ، هات لك جوز حمام !

●●●

كان مستغرقا فى تأمل السماء من كوة السقف .. انتفض على صرير باب الحجرة .. انحنى القادم ، وسد جسمه الضخم فراغ الباب .. كان يرتدى سويتر قرمزى اللون ، وكوفية مزركشة تلتف حول عنقه الغليظ ، ويحمل منظارا مقربا .. قال انه ضابط شرطة متقاعد ، وأنه من هواة تربية الحمام . تركزت عينا ابراهيم فى حذاء الرجل الذى كان يجول بنظراته فى انحاء الحجرة .. خرجا معا إلى السطح كطلب الرجل .. أشار إلى برج شاهق فى شارع خلفى بعيد .. مد يده بالمنظار إلى ابراهيم :

— أنا اسكن هناك .. بالطابق الخامس عشر .. يمكنك رؤية كل شىء إذا أحسنت توجيه وضبط المنظار ..

وضع ابـراهيم المنظـار أمام عينيـه وصـوبـه نحو البرج البعيـد ، مستعينا بإرشادات الرجل :

— أظنك ترى العشة الآن بوضوح ؟

— أي عشة ؟!

— عشة الحمام !

— أرى قفصـا مثل أقفـاص الوحـوش .. أمتأكـد أنت أنك تـربى الحمائم لا الصقور والجوارح ؟

ضحك الـرجل .. قـال ان الحذر واجب وأعداء الحمام كثـر .. أخبر ابراهيـم أنه يضـع الحمام فى عشـة صممها بنفســه ، تتوافر فيهـا كل ضمانات الأمــان ، فقد جعل لها قضبانا مـن الحديد ، يكسوها حـاجز مزدوج مـن سـلك متين ، وتغلق بـواسطة عـدة تـرابيس قويـة وقفل كبير .. وقال :

— إنها لا تسمح بدخول نملة ..

— أعتقد أنها لا تسمح بدخول الهواء أيضا ..

ضحك الزائر ، وأبـدى دهشته لترك ابراهيم حمامه طليقـا .. حدق ابراهيم فى عصفورين بقفص فى إحدى الشرفات :

— لم يخلق كل ذى جناحين للأسر ..

ثم نظر إلى الأبراج :

— ألا يكفى الحمام هذا الحصار ؟!

حملق الرجل فى نهدى المرأة المترجرجين أمامها ، وهى تميل وتنشر الغسيل .. وتقبض عليه بمشابك ملونة ..

— ماذا تقول فى لحم الحمام ؟ إن له شهـرة واسعة فى بعث الطاقة وإثارة النشاط .. كيف لم تتزوج حتى الآن ؟!

حدق فى الرجل مشدوها ..

— لم أذق فى حيـاتى لحم الحمام ، ولا أشتهيـه ، ولا أطيق رؤيـة حمامة تذبح أمامى ..

— لماذا تربى الحمام ؟! لتبيعه إذن ؟

— ليتكاثر ويملأ الفضاء ويحجب سحابات الدخان !

— هواية لمجرد الهواية .. تسلية .. وقت فراغ !

طال الصمت بينهما .. وقال الضابط ..

— أظننا تعـارفنا إلى حـد ما يـا أستاذ ابراهيـم .. لا تعجب .. لقد جمعت بعض المعلومات القليلة عنك قبل مجيئى .. هذا ضرورى جدا .. مع الأسف .. لا أحـد الآن يعـــرف الكثير عن أحـد ! جئت لكى استرد حمامة هاربة .. فى رجلها حلقة معـدنية ، محفور عليه أول حرفين من اسمى .. أظنها دليلا كافيا ؟!

وأخبر ابراهيم أنـه ابتكر الحلقات المعدنيـة وسيلة يستدل بها على حمامه إذا لزم الأمر ..

— الحمامة عنـدى منذ بضعة أيام ، وقـد صار لها ألف ، واتخذت فى البرج سكنا ..

— أعرف فى أى العيـون هى ، ومتى جاءت إليك بالتحـديد .. كنت أراقبهـا بمنظارى ، وكنت متأكـدا أنها ستأتى إلى هنـا بعـد اختفائهـا يـومين ، فـالحمام يغوى بعضـه بعضـا ، وكـان يجب أن أصبر حتى تستقر فى البرج تماما .

— وهل تعرف أنها ترقد على بيضتين ؟

لم يبـد عليـه الاهتمام ، وسـألـه ابـراهيم كيف استطـاعت الحمام الهروب على الرغم من احتياطاته الأمنية المنيعة ؟

أجاب فى شىء من الحنق :

— ربما وجدت بين الحمام فـردا مارقـا .. متمردا .. أحيـانا أتـرك

باب العشة مفتوحا دون أن تجرؤ على اجتيازه حمامة ..

— اعتاد حمامك الأسر ، وصار مشلول الأجنحة ..

عرض ابـراهيم على الضابط تـرك الحمامة مع الفهـا فى مقابل أول زوج يأتى من نتاجهما .. رفض الضـابط بإصرار ، وطلب من ابراهيم أن تعيش الحمامة وزوجها فى عشته بنفس المقابل ..

صاح ابراهيم ملتاعا :

— لا .. لا !!

صعد الضـابط إلى البرج ، وأمسك بالحمامـة ذات الحلقة المعـدنية بالساق .. كانت تئن وتتململ فى قبضته ، وقـد اعترتها حالة غريبة من الفزع ..

— حمامك من نـوع أصيل يا أستـاذ ابراهيم .. مارأيـك أن نتبادل المعلومات والخبرات مادام لنا نفس الهواية ؟

لم يجب ابراهيم ، واستوقف الرجل على الدرج الخشبى :

— أرجوك لا تصوب منظارك ناحيتى بعد ذلك .

نزل الرجل وهمس ابراهيم فى حيرة :

— لماذا لا أسمع وقع أقدامه على الدرج !

●●●

جمع الأغصـان اليـابسة من الحديقـة ، وصعـد بها إلى السطح .. كانت كـريمة قـد فرغت من ترميم الفـرن بالطين ، ونظفتـه استعدادا لشى السمك . تأججت النـار ، وجلس ابـراهيم بجوار شقيقتـه ينشق الـدخان المتصـاعد وقـد غيبه انتشـاء : «دخان أمى الطيب .. دخـان الخبـز ، تخامره رائحـة العجين والخبز السـاخن .. دخان الشـواء .. دخان الأخشاب والقـوالح المحترقة ، وقد اجتمعنا حـولها فى ليلة شتاء باردة .. »

انتبها وأرهفا السمع لوقع أقدام متسارعة تصعد الدرج الخشبى.. وقفت جيهان تحملق فيهما لحظات..

— ماذا تفعلان؟!

استدارت وأجابت باسمة:

— خالك يريد أن يأكل السمك مشويا فى فرن جدتك.. سأصنع لك فطيرة، وسأعمل لك عروسة من العجين كما كانت تفعل أمى.

عبست جيهان وهرولت نازلة..

سأل ابراهيم شقيقته ، وقد افترشا الأرض ، وأمامهما السمك المشوى:

— هل احتفظت بنصيب محمود ومحسن..

أجابت : نعم.. ورفضت جيهان أن تشاركهما الطعام، وانفجرت بعد صمت:

— لقد كنتما فرجة لسكان الأبراج وأنتما أمام الفرن.. فى أى زمن تعيشان؟! كان منظركما فوق السطح...

وانطلقت فى نوبة من الضحك المتشنج...

●●●

اكتشف اختفاء فرخى حمام من أحدى العيون ، وانتابته حالة من الوساوس المضنية. احتفظ بكشاف أسفل وسادته ، وكان يبيت مرهف السمع لأقل رفة جناح.. يهب من اغفاءاته القليلة فزعا ، ويمضى كالمتخبط حاملا كشافه المضىء ، يعس فى الحديقة ، ويتسلل إلى السطح باحثا عن عدو الحمام المجهول. يلاحق بعينيه بقعة الضوء متوجسا.. رابته فى سكون السحر حركة.. وجد باب الحجرة الخشبية مواربا.. دخل مستريبا ، واستقرت بقعة ضوء الكشاف على قط ضخم أسود فمه ملوث بالدماء.. تجمد ابراهيم فى مكانه وقد أخذته

المفـاجأة.. تراجع القـط وقد تقـوس ظهـره ، وانتفش ذيله وجسمــه ، وأخـذ فى اصـدار أصوات كـالعـواء ، متأهبـا للانقضــاض.. انــزوى ابـراهيم فى ركن الحجرة مقشعـرا ، واندفع القط خـارجا.. استغـرقت المواجهـة لحظـات ، وقـف ابـراهيم بعـدهـا لاهـث الأنفـاس .. سلط الكشاف على الضحيـة: الحمامة العجوز التى عـافت الطعام والشراب منذ أيام ، وكانت تقبع بجوار الفـرن.. وجدها ابراهيم مبقورة البطن ، منـزوعـة الأحشاء. وأراهـا التراب على مقـربـة من شجرة الـرمـان ، واهتـدى إلى فكـرة الأطر الخشبيـة ، فصنع لكل عين من عيـون البرج اطـارا ، يضيق من فـراغها ، بحيث يسمح بـانـزلاق الحمام إلى داخل العيون ، ويعوق دخول القط ذى الـرأس الكبيرة.. نجحت فكرة الأطر الخشبية المثبتة إلى العيون ، ومرت بضعة أيـام بلا ضحايا ، واستعاد ابـراهيم الكثير من الأمــان ، وتـــوالى فقس البيض ، وخـروج الأفـراخ الجديـدة ، إلى أن اكتشف ابراهيم اختفـاء عـدد من البيض.. قالت لـه شقيقتـه: لابـد أنـه ثعبـان.. القط يفترس الحمام الصغير ، والثعبـان يبتلع البيض ، وهـذا هو السبب فى تنـاقص أعداد الحمام ، وانقـراض الأفراد الجديدة ، بعد رحيل أمك ، وغيابك فى السفر..

سـألها فى أسى: لماذا لم يكن يحدث ذلك أيام أمى؟!

اجتـاحتـه الـوساوس الليليـة بضراوة ، وعـاد إلى حمل كشــافـه ، والطـواف بـالحديقـة.. يسلط الضـوء على شروخ الجدران، وشقـوق السور ، وفجـوات الجذوع النخرة ، ويصعد إلى السطح ، يتـابع بقعة الضـوء وسط الصمت والظلام.. حشـا الشروخ والشقوق بـالحصى وسدهـا بالطين ، وصنع أغطيـة خشبية كـالسدادات ، يثبتهـا بعيون البرج أوائل الليل ، وينـزعهـا فى بـواكير الصبـاح.. مـرت الأيـام بـلا خســائر.. فى سكون الظهيرة شـاهد ثعبـانا أرقش يتسلل من إحـدى العيون ، ويتلوى نازلا .. اسقطه ابراهيم بعصا طويلة .. زحف الثعبان

متفاديـا الضربات واختبأ بالفـرن .. أضرم فيه النار ، فخـرج الثعبان مترنحا ، وفتت ابراهيـم رأسه بحجر ، واطمأن تماما عندمـا زفت إليه أختـه البشرى: أخبرته أنها شـاهدت القط الأسـود نافقـا على رصيف الشـارع ، وقالت له ان القط المؤذى مصيره المحتوم هو القتل.. خرج فى ظلمة الليـل إلى الشـارع ، وسلط الكشـاف على جثة القط.. كـان يتمدد متصلبـا ، مشجـوج الـرأس ، مكشرا عن أنيـابـه.. تفـاءل ابـراهيم ، واستقبل أنســام الـربيع الـدافئة ، المتسللـة من جـو الشتـاء بأمل .. واستراح من عناء تثبيت السدادات ، وانتـزاعها .. وانطلقت من العيون أزواج جديـدة من الحمام بهيجة المنظـر ، تطير هنا وهنـاك ، وتلاحق الأبـوين فى تذلل جميل ، وصـوصـوة مستعطفة ، طمعـا فى مزيـد من الطعام والحنان ، وتشبثا بعهد الطفولة السعيد..

●●●

وجدهـا ترقد فى انكسار ، عنـد انتهاء البقع الدمويـة التى تشربتها مسام الـدرج .. حملها .. أحست لـزوجة الدمـاء وحرارتها أصـابعه.. كان ريشها الابيض يصطبغ باللـون الأحمر القانى من تحت الجناح.. نزل بالحمامة الجريحة وقال لشقيقته بالتياع:

— اصابتها طلقة من بندقية صيد ، لكنها ما تزال حية..

نظرت إليـه كريمة باشفـاق ، وساعدته فى تضميـد الجرح النازف برباط من نسيج أبيض سرعان ما تخضب بـالدماء . أودعها صندوقا من الكرتـون ، وعاد إلى السطح ، يحدق فى الأبـراج .. كان يـدور بطيئا حول نفسه متسائلا: من أين أتت الطلقـة الغادرة ، وكانت الأبراج مثل مردة صامتين..

أخبرته شقيقته باحتضار الحمامة عند الغروب ، ولفظـت أنفاسها الأخيرة بين راحتيـه .. وضعهـا فى الصنـدوق ومضى إلى الحديقـة .. شرع يحفر قرب شجـرة الرمان .. رفع رأسـه ليجد شقيقه «محمود» أمامه عاقدا ذراعيه..

ـــ ماتت الحمامة يا محمـود! كنت آمل أن تعيش ، ولكن أصابتها كانت قاتلة..

ـــ ليت كل الحمام يموت!

توقف ابراهيم عن الحفر ، وحدق فى شقيقه..

ـــ إلى هذه الدرجة تمقت الحمام؟!

ـــ ماسر اهتمامك بالحمام بعـد رجوعك من السفر ؟! هل تتمسك بـالبيت من أجلـه حقـا ، ومن أجل البرج القـديم ، وشجـرة الـرمـان اليابسة وحقل الطماطم؟ أنت والحمام تضيعان أحلامنا.

أسفر الشباك المتهالك عن وجه محسن .. وقال ابراهيم وهو يوزع نظراته بين شقيقيه:

ـــ أتمسك بالبيت من أجل كل شىء فيه .. كل حجر .. كل طوبة .. ألم يبن أبوكم البرج بيديه ؟! أليس البيت يجمعنا؟

قال محمود:

ـــ المعلم فـايز مازال يـريد البيت .. لقـد حدثنى عنـه كثيرا وأنت مسافر.

ـــ ليهدمــه ويجعله بـرجا .. ألا يكفيـه مـا هـدم من بيـوت طيبة ، وما زرع فى الأرض من أبراج شيطانية؟!

ـــ قال محمود:

ـــ ولم لا نبيع؟ نحن ورثــة مثلك .. أنا أريـدُ نصيبى .. ومحسن .. جيهان أيضا تتحدث عن نصيب أمها..

وأكمل محسن من الشباك:

ـــ ألم تسافـر لتجمع المال ، وتعطى كل واحد نصيبه ؟ ألم تعـدنا بتحقيق أحلامنا؟

ـــ حاولت .. هل كـان يتوقع أحد مـا حدث ؟ هل تجدان تفسيرا لما

جرى على أرض العـرب ؟ فقدت كل شيء .. وكان يمكن أن أعـود جثة فى صندوق أو لا أعود..

وجم الشقيقان .. وبدا ابراهيم كالمطعون ..

— لماذا تنتظران أن أحقق أحـلامكما .. الستما رجلين الآن ، يحمل كل منكما شهادة جـامعية ؟! هل فكـر واحد منكما فى أن يـرد مرة على رسالة من رسـائلى وأنا فى الغربة ؟! هل كـان سيأتى أحدكما لاستلام جثماني من المطار ؟!

استـدار محمـود وابتعـد بخطـوات مستفـزة الهدوء ، وانسحب محسن من الشباك وأغلقه .. وتطلع إلى السماء:

«السحابة السوداء !! لماذا لا تريد أن تنقشـع عن سمائى ؟!»

وارى الحمامة التراب ثم قبع وحيدا فى الحديقة..

●●●

مع أشراقـة كل شمس ، كـانت هنـاك حمامة صريعـة مضرجـة فى دمائها أو تحتضر.. ازدحمت أرض الحديقـة بالجثث ، وصارت مقبرة للحمام .. استبدت بـابراهيم وساوسـه الليلية ، وتحولت اغفـاءاته إلى كوابيس ، يهب منها مرتاعا .. وقضـى فترات طويلة من الليالى مصوبا كشـافه نحـو الأبـراج العملاقـة ، متابعـا دائرة الضـوء على النوافـذ والشرفات كـالمجنون ، وظل يكمن فى حجـرته الخشبيـة معظم أوقات النهار .. واعتراه ذبـول وشحوب ، وسكنته الكآبـة ، وأعياه البحث عن البنـدقية المجهـولة ، واليـد الآثمة التى تضغط الـزناد .. وبينما كـان رابضا فى الحجرة قبيل الشروق ، سمع صوتـا مكتوما ، أعقبه ارتطام شيء بسقف الحجـرة .. تسلل بهدوء ، واستطـاع أن يـرى الماسـورة الرفيعة السوداء ، وهى تنسحب زاحفة على حافة نافذة بأحد الأبراج ، وعرف مكانها على وجه التحديد .. وشاهد الحمامة ترفرف نازفة فوق

السقف .. أخبر شقيقته فأشارت عليه بالذهاب إلى المعلم فايز صاحب الأبراج ، ولاقت لديه الفكرة قبولا ، فقد كـان يريد إيقاف نزيف الدماء بطريقة سلمية ..

قصد ابراهيم إلى معـرض «السيراميك» الفسيح الذى يمتلكه المعلم فايز ، ويحتل مساحة واسعة أسفل أحـد أبراجه .. التقى به فى حجرته الزجـاجية المكيفـة العطرة .. رحب بـه المعلم فايـز الجالس إلى مكتبه الفخم ، وأمامـه عود بخـور متوهج القمـة .. أخبره ابراهيم أن الحمام يهوى صريعا بطلقات بندقية صيد ، وحدد له مكان الشقة .. عرف من المعلم فـايز أن بتلك الشقـة سكانـا جددا .. عجـوزا وزوجها المقعـد وابنهـا الشـاب .. وأرسل أثنين من عمالـه الأشداء لاحضـار الشـاب والبندقية .. وقال وهو يقدم علبة من العصير لابراهيم :

— هل حدثك محمود فى موضـوع البيت ؟ مازلت أريده .. سأدفع أعلى سعر ثمنـا للمتر .. وسأعطيكم شقة واسعـة بأحد أبـراجى فوق ذلك ..

— لقد جئتك من أجل انقاذ الحمام ..

— ألا تـرى أن بيتكم يشـوه منظـر الشـارع ؟ خسـارة كبيرة الا تتحول هذه المساحة الواسعة إلى برج !

زحزح ابراهيم علبة العصير من أمامه ..

— كان بمقدورى اللجوء إلى القانون لانقاذ الحمام ..

ابتسم المعلم فايز ..

— القانون ؟! لن يفيدك القـانون شيئا .. لم أقل لك أن ذلك الشاب يعـانى من مرض نفسى ، وتنتـابـه حالات من الهيـاج والثورة ، فـلا يـدرى ماذا يفعل .. عـرفت ذلك من أمـه ، وقرأت بنفسى الشهـادات الطبية .. كل مايقدر عليه القانون هو مجرد تعهد وأنا كفيل بذلك .

جاء الشـاب ومعه بندقية صيـد ذات منظار .. كان طويل القـامة ، وسيم الملامح ، يرتدى بنطلون جينـز ، وقميصا مفتوح الأزرار ، تبدو منه فـانلة مرسـوم عليها صورة لمطـرب عالمى مشـهور ، وكـان يبدو عليه الهدوء الشديد .. سـأله ابراهيم بوجه دهش عاتب :

— لماذا تقتل الحمام ؟!

أطرق الشاب ولم يجب ، وكرر عليه السؤال ..

— لماذا تقتل الحمام ؟ أليس هذا حراما ؟

رمقـه الشـاب بنظـرة مستهينـة وهـب ابـراهيم واقفـا ، وأمسك بقميصه ، وجذبه إليه بقوة ..

— لماذا تقتل الحمام ؟!

نحى الشاب يدى ابراهيم بعصبية ، وقال وهو يرفع البندقية :

— ولماذا جعلت هذه ؟!

تـدخل المعلم فايـز ، وتحدث إلى الشاب ، وجعلـه يتعهد لإبـراهيم بعدم قتـل الحمام، وسلم الشاب البنـدقية للمعلم فـايز اثباتـا لحسن النية.. احتجـز المعلم فايز البندقيـة لديه، وأسنـدها إلى الحائط خلف مكتبه، وخرج إبراهيم راضيا..

●●●

كـان حـزينـا لهجرة الحمام بـرجـه القـديم، ولجوئه إلى الأبـراج العمـلاقـة.. كان يـراه على هـوائيـات الاستقبال، والاطبـاق المقعـرة، واسيجة الشرفات، ولم تعد تصل إليـه وشوشات الحب والحب.. قالت له شقيقتـه أن الحمام يهجر أوكـاره إذا افتقد الأمـان، لكنه يبقى دائم الحنين إلى مكانـه الأول، ينتظر الـوقت المناسب للعـودة.. سر إبراهيم لاكتســاب ثمار الطماطـم الخضراء حمرة خفيفـة، وأدهشـــه انبثـاق الأغصان مـن شجرة الرمـان، تحمل وريقات زهيـة الخضرة، وأقبلت

الأيام تبشر بعهد جديد من السلام، وآب الحمام إلى برجه، وانشرح صدر إبراهيم وأفعمه الأمل، وقال لشقيقته كالحالم: سأزرع الحديقة بأشجار الفاكهة.. سأزرع البرتقال والليمون والجوافة.. سيكسو الياسمين سورها، وتصنع أزهاره مظاهرة بيضاء، تضج بالعبير والجمال.

●●●

كان يطعم الحمام قبيل الغروب، عندما روعته صرخات شقيقته ، ولاقته جيهان على الدرج الخشبى وهى ترتجف.. وجد شقيقيه يشتبكان بالايدى ، ويتصارعان .. تدخل ابراهيم يحول بينهما .. اندفع محمود إلى الداخل وعاد بسكين .. أمسك ابراهيم بيد محمود حائلا بين السكين وصدر محسن .. صرخت الشقيقة ، وأخفت جيهان وجهها بكفيها .. استرخت يد محمود وسقط السكين ، وران سكون رهيب .. نظرت العيون الذاهلة إلى يد ابراهيم .. كانت تنزف بالدماء ، وقد اصابها نصل السكين الحاد بجرح .. اسرعت كريمة تكتم الجرح بعصابتها .. انسحب محمود خارج البيت منكس الرأس ، واختفى محسن بالداخل .. حدق ابراهيم فى الأشياء المبعثرة خارج الحجرة من ملابس وأحذية ومجلات وسأل أسوانا عما حدث .. أخبرته كريمة أن «محمود» يريد أن ينفرد بالحجرة ، وطرد «محسن» منها ، وألقى بأشيائه خارجها ..

— هى حجرة واسعة ، ومنذ ولدا وهما يعيشان فيها معا .. ألسنا نسميها حجرة محمود ومحسن ؟!

— ماعاد أحدهما يطيق الآخر !

— منذ متى ؟

— يتشاحنان منذ غيبك السفر ..

صاحت جيهان :

— خالى ابراهيم يفر من مشـاكلنا إلى الحمام .. متى أتزوج وأنجو من هذا البيت المشئوم ؟

تنـازل ابراهيم عن حجـرته الخاصــة لشقيقه محسن ، وقـرر أن يبيت مـؤقتا بـالصالـة إلى ينقل أشيـاءه إلى حجرتــه الخشبية فـوق السطح ..

كانت ليلة كئيبة .. ظل ابراهيم مـؤرقا ، متوترا ، متألما من جرحه . وأفـاق من اغفـاءة قصـيرة كأنها الغيبـوبـة ، وبـدا كـالمختنق .. أيقظ شقيقتــه بعد منتصف الليل ، وحكـى لها حلما رآه ، انتهى إلى كابـوس مفزع .. قـال انه شــاهد أمــه بجوار فسقيـة من الفسيفساء الملـونة ، تتوسطها نـافورة ينبجس منها الماء ، وتلفها هالة جميلــة .. كان هناك حمام كثير حول النــافورة ، وأمــه تنثر الحب لــه .. كان الحمام يلتقط الحب ، ولم يكن الحب ينفد .. وكان المصلون فى ثياب بيضاء ساجدين تحت سقيفة ، كأنهم حجيج .. انهمرت طلقـات الرصاص على المصلين بغتـة، وكـانت تصـدر مـن رشــاش.. طـار الحمام فـزعـا، وارتفعت الصرخـات، وسـالت الـدمـاء.. وهرولـت أمه وهـى تصرخ، وغـابت فى الظلام.

قالت شقيقته :

— أقرأ الفاتحة لأمك يا ابراهيم ..

وقال ابـراهيم انه سيذهب إلى القـرية قريبـا لزيارتها.. امتـدت يد إبراهيم وتناول قرصا بعد تردد، وكان أول قرص يتناوله..

●●●

أشرقت الشمس على جثث الحمام المتنـاثـرة فوق السطح والـدرج الخشبى وأرض الحديقة.. راح ابراهيم يقلب فى الجثث كالمجنون، وهو يردد:

مذبحة بشعة !! قتلوا الحمام ! قتلوا الحمام !

واجهش بالبكاء .. جمع الجثـث فى صندوق، وقصد فى الضحى إلى معرض السيراميك.. دخلـه واجما.. دفع باب الحجرة الزجـاجية، كان المكان خاليـا، وكانت البندقية ذات المنظار مـا تزال تستند إلى الحائط خلف المكتب.. رنا اليهـا، ثم غادر المكان، وخرج المعلم فـايز من خلف الصناديق، وترددت أصداء ضحكاته فى أرجاء المعرض..

حفر ابـراهيم حفرة كبيرة دفن فيهـا الحمام الصريع.. وعاد يحدق فى الأبـراج ملتاعـا.. كانت تخرج من كل شرفـة وكل نافـذة ماسـورة بندقية، وأصاب ابراهيم دوار، وخر مغشيا عليه..

أتاه الضابط المتقاعد، وأخبره أنه صدم بخواء برج الحمام، وسأله ماذا حدث.. أشار ابـراهيم إلى الأبراج فى صمت.. عرض الضابط شراء مابقى من الحمام ليكون فى حمايته.. حدق فيه ابراهيم طويلا..

— لم يخلق الحمام ليوضع فى سجن!

— نصحتك بالاحتيـاط فلم تستمع .. حمامك من سلالـة أصيلة.. ربما كنت تحسن تربية الحمام، ولكنك لا تجيد حمايته والدفاع عنه..

سأله ابـراهيم عن الحمامة المستردة، فأخبره مضطربـا أنها ماتت بعد مرض قصير. وانصرف الضـابط دون أن يسمع لأقدامه وقع على الدرج.

اكتشف ابراهيم سقـوط زهرات الـرمان الثـلاث التى يعشق لونها الأحمر، واختفاء ثمار الطماطم، فاستبدت بـه الوساوس الليلية، وعاد إلى حمل الكشـاف، وتوجيهـه نحـو الأبـراج.. استقرت دائرة الضـوء المتسعة على كهل يـداعب صبية بالشرفة، واستشعـر ابراهيم الحرج، وضغط زر الكشاف بـاضطراب ليسـود الظلام، ثم أوى إلى حجـرته الخشبية..

●●●

كـان يتأمل البرج الخاوى، وبضعة أفـراد من الحمام، تتطلع هنـا

وهناك بعيـون حزينة، وكأن كـلا منها يبحث عن الفه الغـائب، وكان يبدو عليها التوجس.. انتبه على ضجـة، ووقع أقدام تكاد تحطم الدرج الخشبى، وداهمه المعلم فـايـز وعـدد من الرجـال يحملـون المواسير الحديدية والعصى.

قال لـه المعلم فايز ان وجـوده فوق سطح البيت قد أثـار الشبهات من حولـه.. وأن سكان الأبـراج يرتابـون فى نوايـاه.. وأن برج الحمام ماهو إلا ذريعة، والحجرة الخشبية مـرصد يراقب منه السيدات، وهن ينشرن الغسيل، ويجلسن بالشرفات فى ثيابهن الشفافة..

— ألم تكن تسلط كشافك المريب فى الليل على النوافذ والشرفات؟

لم يجب ابـراهيم، ووقف مستسلما، والمواسير والعصى تنهـال فى غل على الحجـرة الخشبية، والسيـدات يـراقبن ما يحدث من شرفـات ونوافذ الأبراج.. صارت الحجرة حطاما، والفرن القديم..

●●●

وجـد جثث مـا تبقى من الحمام على السطح، وقـد سال ريـالها.. حدق فى الأبراج كأن به مسا.. ونزل وقـال وهو يجول بنظراته المرتابة فى شقيقيه، وجيهان:

— من الذى دس السم للحمام؟!

قالت شقيقته فى اشفاق:

— ربما كان وباء ياابراهيم!

حدق فيهم بارتياب، وصاح فى حدة:

— وزهرات الرمان الثلاث، وثمار الطماطم؟!

لم ينج غير زوج من الحمام، كان قـد تعلم الطيران حديثـا، وضعه ابراهيم فى قفص، وركب الأتوبيس، وقـد اعتراه شرود وذبول.. نزل فى المحطة الأخيرة، وســار على شاطىء تـرعة ذات مـاء داكن آسن، تعلوه

الطحالب الخضراء.. عبر جسرا خشبيا ضيقا إلى المقـابر.. كان قبر أمه على الطريق تظللـه شجرة كافـور.. قرأ الفاتحة ومـا تيسر من القرآن وانخـرط فى البكـــاء.. فتح القفص لـزوج الحمام.. وقفـــا فـوق القبر لحظات.. ثم طارا، وأخذا يحلقان فوق المقابر..

اجتاز ابـراهيم المقابر، ووقف مشـدوها يشاهـد البنايات العـالية المتاخمة لها.. كانت الشرفـات والنوافذ تطل على المقابـر، وكانت هناك سيدات فى ملابس شفافة ينشرن الغسيل.. وكانت هناك مقاعد تصف أمام احدى البنايات، ومصابيح ملونة تزين الواجهة، وزغاريد تنطلق، وموسيقا صاخبة تأتى من كاسيت ضخم.. استدار ابراهيم عائدا..

●●●

عـاد ابـراهيم ليبيـع البيت.. واتفق فى ذات الليلـة على الشروط مع المعلم فايـز.. وكان المقابل شقة واسعـة فاخرة بأحد الأبـراج، ومبلغا كبيرا من المال..

انتقلت الأسرة الى الشقـة الجديدة.. وشاهـد ابراهيم البرج القـديم من شرفتهـا وهـو يتهـاوى تحت ضربات المعـاول، والبلـدوزر وهـو يقتحم السور، ويكتسح أمــامه شجرة الـرمان وحقل الطماطم، ورأى انقـاض البيت وهى تحمل بعيـدا مع الذكـريـات على عربـات النقل.. وسرعان مــا حفرت الأرض، ووضـعت الأسـاســات، وارتفع برج جـديد عملاق مكان البيت القديـم..

●●●

ووزع ابـراهيـم الأنصبـة.. واختـــار كل من الشقيقين أن يستقل بحياته، وأن يحقق أحلامه بعيـدا.. اشترى محمود شقة وأقام «سوبر مـاركت» وفعل محسن مثله، لكنــه افتتح محلا لبيع شرائط الفيديـو.. وعقد قـران جيهان على مهنـدس الكترونيات يعمل بـأمريكـا، وأعدت أوراق السفر لتلحق بــه.. فى يوم السفـر اصطحبها خـالها ابراهيم فى

سيارتـه الـخاصة.. كـانت تجلس با لمقعـد الـخلفى كالحا لمة.. وقـالت شقيقته الجالســة بجواره: مـا كان يمكن أن يأتى «جى جى» عـريس مثل هذا لولا سكنانا برجا عاليا!

وظل يقود السيارة صامتا..

عندما رجعا من المطار قالت له شقيقته وهى تتشنج:

— لقد صرنا وحيدين ياابراهيم بعد سفر جى جى!

نظر إلى شعرها المصبوغ باللون الأشقر الذهبى، وإلى وجهها الذى تغطيــه المســاحيق، وإلى فستــانها الأنيـق، وابتسم بــلا مبــالاة واستغراب.. دخـل حجرته، وأغلـق عليه البـاب.. خلع ملابســه، فبدا جسمه وقـد ترهل كثيرا. ارتدى البيجـاما ذات النسيج الأملس البراق، والتى تحمل على الصــدر صــورة لبطل سينمائى عــالمى، عــارى الذراعين، يقبض على المدفع الـرشاش، مستعرضــا عضلاته القـوية، وعلى وجهه ابتسامة ساخرة..

وفى تلك الليلة، مثل كل ليلــة، عطر ابراهيم جو الـحجـرة المكيفة من علبـة «الاسبراى» برائحــة الياسمين، وامتـدت يده إلى علب الأقـراص الكثيرة المتناثـرة فوق المنضــدة.. اختار علبــة، وابتلع قرصــا.. وضع شريطا فى جهاز الفيـديو، وأداره، واسـترخى فى المقعد كـا لمخدور، وهو يمسك «بالـريموت كنترول»، وأمامــه رجلان قويـان عاريان تقـريبا يتصــارعــان فى شراســة.. يســدد أحـدهما اللكمات إلى وجـه الآخـر.. يسقطـه أرضـا.. يسيل الـدم من فمـه وأنفه مخضبـا بساط الحلبـة، ومازال يـركله بوحشيـة، ويضغط عنقه بحـذائه، وذراعه مرفـوعة فى زهـو، والمشاهـدون من حولهما يصيحـون مشجعين.. بدا أنــه صراع حتى الموت، وابراهيم يحملق، ويقضم تفاحة حمراء فى تلذذ وبلادة.

« غـــا .. غـــا .. غـــا .. غـــا .. »
عنـــدمـــا رأيتهم أول مـــرة حسبتهـم تماثيل ..
« غـــا .. غـــا .. غـــا .. غـــا .. »
لكنهــم ليســـــــــــوا .. تماثيــل ..
إنهم عـائلــة السيـد (كمبـت) أمـام الشـاشـة !

كانــوا يلعقونها بعيونهم وألسنتهم.. يلمسون عليهـا بأصابعهم.. يشمونها ويحكّونَ فيها أنوفهم. يتمسحـون فيهاِ بوجوههم وأكتافهم وأقفـائهـم وصـدورهم.. وأعضـائهـم النـاتئـة.. وتلـك المطمـورة.. يحتضنـونها . ثم يطـرقـونها بأردافهم.. ثم يقبلـونها.. ثم يلصقـون عليها آذانهم ويتركـونها هناك لتجف وتتصلد.. وتصبح طوابع بـريد تـذكاريـة يـراقبونها من بعيـد وهـى تـذوب وتختفى فى الشاشـة، ثم يعـودون فيقبلـــونها.. ويلعقـونها ثم يتحسســونها.. ويطـــرقـونها بأردافهم. و.....

« غا .. غا.. غا .. غا .. » فانكمشت فى مكانى !

كـانت ببغاؤهم تتصـــارخ فى القفص. وتـرفرف وتلـوح لهم. فمال السيد على أذن السيدة حـرمه ومط شفتيه فى امتعاض بـاسطا راحته أمامه. فانحبست أنفاسى!.. نَظَرَت إليه وثبتت عينيها . ثم عادت تنظر إلى الشاشة فعاد ينظر إلى الشـاشـة. فزفزت فى ارتياح: عمرٌ جديد!

دخل الـولـد. فالتـوت نحـوه الأعناق.. راحت تصطحبـه من بـاب

شقتهم. حتى باب غرفته. صك الباب فارتدت أعناقهم بحركة زنبركية إلى الشاشة. وثبتوا أعينهم..

جاءت البنت فالتوت نحوها الأعناق.. منكوشة الشعر كانت وملوثة المكياج.. ممزقة الملابس الخارجية والداخلية عند الصدر والأفخاذ. وعيونها حمراء من أثر بكاء. فالتقت نظرتهم.. ثبتوا عيونهم بدبابيس على وجه البنت . فأطرقت بعينيها فعادوا ينظرون إلى الشاشة. فجلست البنت وراحت تنظر إلى الشاشة.. فتصارخت الببغاء!

مال على أذن زوجته وفرد كفه فى امتعاض. فَنَظَرَت إليه.. فعاد ينظر إلى الشاشة فعادت تنظر إلى الشاشة.. فأطمأن قلبى..

لم أعد أخاف!!

الغـــــاز

« غا .. غا .. غا .. »

فمال السيد على أذن السيدة حرمه، ومط شفتيه فى امتعاض وبسط راحته :

« ماذا تقول هذه المغفلة ؟؟ .. »

« تغوغىء ! » وقلبت شفتها ..

« م م م م م ! »

مطفأة عن عمد، كانت الصالة ـ عدا الشاشة ـ وصامته مثل ليل البرارى.. أماهم أى : السيد كميت، السيدة حرم السيد كميت، وابنتهما البيضاء الجميلة الآنسة طوق كميت، فكانوا جميعا أمام الشاشة..

راحت تترات لاتينية أنيقة تتصاعد ببطء على الشاشة حاملة اسماء.. (ممثلين ومخرجين ومنتجين.. مهندسى صوت وإضاءة

وخدع.. مؤلف كبير.. وشركة توزيع عظمى) ثم كُتب فوق الشاشة ..

الحلقة ١٩١٧ ، مشاهدة ممتعة :

وجاءت ممثلة فتصارخت الببغاء ..

جاءت !!

رائعة الحسن كانت، ولها شعر وعيون خضراء ..

في صفرة البرتقال كان الشعر ويتهدل ..

خلف ظهرها استرسل كشلال من الحرير فتجمدت عليها الصورة!

مُرت الصورة بلحظة من الخدر قبل أن تستعيد الوعي.. فتلفتت الممثلة حولها بعينين ناعستين ثم راحت تخلع ملابسها.. بدأت بمعطفها البني الثقيل فتلوت داخله، ثم عضت شفتها السفلى وهي تستخرج منه صدرا ناهضاً كالقربة.. يقدم مستدقّة موردة أخفت حذاءها الكاوبوي تحت السرير في إهمال، ثم راحت تستحلب شفتيها وهي تواصل التملص من بقية الملابس.. بعد قلقل أصبحت شبه عارية.. حملت صدراً وأردافاً ، وهنا رابيا. ثم تسربت بالجميع تحت الغطاء بجوار امرأة أخرى لها حلمات متشنجة !

لم يتعانقا ..

لم يتلاثما ..

وإنما اندست الأذرع.. أول ما اندست.. فغاصت مباشرة في كهوف اللحم الدافئ الرخو حتى غابت الأكتاف ، فاندلعت صرخات شبق عاوية ترج المكان.. وجاء محمد..

« محمد ! محمد ! لا يفوتنك هذا المشهد يا محمد ! » ..

لا أعبد ما تعبدون

وكانت أثداء المرأتين ترتعد كأربعة أفرع معذبة لشوكتين رنانتين، فقال :

« ولكنك كنت تشاهد التليفزيون يا محمد ! » .. « طق ق ق ق !! » ..

دخل غرفته وصك البـاب فتسللْت ببعضى وراءه لأرى ماذا يفعل ! وببعضى الآخر، شاهـدتها تتوجه إلى السيد كميت بنظرة بـاكية كليلة تستنجد بـرجولته، كأنما تقـول له « لقـد طق ق ق ق عقل الولد يـا أبا محمد ! ».. فربت على قلبها بنظرة حانية طويلة ، كأنما يقول لها.. « لا عليك .. سينصلح حالـه فى القريب ! » بينما راح عقلـه يردد ، ويصرخ «لقد ضاع الولد يا أم محمد !!» ..

— ٢ —

أشـاح الـولـد بـوجهـه ولحيتـــه، قـال : « لكم دينكم ولى دين ! » فاحتقنت عينا السيد كميت بالدموع وكز على أسنانه ، لكنه ابتسم :

ولكنى أبوك على أية حال يا محمد ! » ..

فأدار الولد ظهـره ثم صدر عنه صوت ـــ خُيل إلى السيد كميت أنه يصدر عن جهاز تسجيل ـ قال : « يـا نوح إنه ليس من أهلك، أنه عملٌ غير صالح ! » فغادر السيد كميت الغرفة !

يومهـا فى المقهى قال له الأستاذ بـاسيلى (صديق طفولتـه) وهو يرمـى حجرى النرد: «هـذا زمان لا يعجبنـا، أليس كذلك!!» فـأطرق السيـد برأســه «حقاً، جـاء الزمن المعطـوب!» ثم رمى حجرى النـرد فالتقطهما الأستاذ باسيلى، وغمغم..

«رحم اللـــه زمـــاننـــا ! زمـن الاحتـــلال.. من يهود، وانجليـــز، وفرنساوية».. ثم مال إلى الأمام بـابتسامة كبيرة منتشية « كان الزمن النبيل، أليس كذلك ؟! »..

كقطنة مبللـة بالنـوشادر، ايقظت العبـارة عقل السيد كميت! رأى صديقـه يتحدث كمن يلوك قطعـة ممتعة من الحلوى (وبـالفعل كان يلوك واحدة) فصمم أن يذكّره..

تطلع إليه بعينى طفل يقاوم النوم، وهمس:

«كانوا يظهرون لنا العداوة!» ..

فغض الأستاذ باسيلى من بصره فى مرارة وغمغم:

«الآن لا يظهرون لنا العداوة » .

فأطرق السيد وظل يسوى أوراقه فى خمول ، ويلقى حجرى النرد ويلتقطهما ويرشف من كوب الشاى ثم رفع رأسه:

«كانوا يشهرون مدافعهم الحديثة فى وجوهنا!»..

الآن لا يشهرون مدافعهم الحديثة فى وجوهنا!!»..

ثم أفلتت منه ضحكة قصيرة ومال على السيد كميت مشيراً إلى أعلى العمارة التى يجلسون تحتها.. غمغم «فوقك مدفع، فهل تستطيع أن تراه؟!».. ثم قذف حجرى النرد فى غل، فطار أحدهما إلى الشارع..

غربت الشمس وحل الظلام، ثم خلت المقهى من الزائرين.. فرفع السيد كميت والأستاذ باسيلى ظهريهما فى تأوه. وقد أرهقهما البحث عن الحجر المفقود فى تراب الشارع..

تنهد السيد كميت. ثم رفع رأسه.. مغمغماً بصوت واهن:

«لقد ضاع الولد يا باسيلى! » وقلب كفيه.

«تصور يا باسيلى.. يقول لى (يا نوح) تصور!»..

فراح الأستاذ باسيلى يهز رأسه على الجنبين فى تأثر، ويمط شفتيه ممتعضاً ثم ـ فجأةـ توقف عن ذلك!

اتسعت عيناه فمال إلى الأمام. وهمس:

«ولكن عفواً يا صديقى. ما اسمك الحقيقى؟!» فرسمت عينا السيد كميت مع ثغره ثلاث دوائر مدهوشة ثابتة القطر، وهو يتطلع إلى الرجل..

كان الأستاذ باسيلى قد أخرج من جيبه كيسا من الملح، وآخر من السكر، وراح يضيف منهما إلى كوب الشاى الأسود أمامه ويقلب

بقلمـه.. ثم يتـذوق بقـرف شـديـد: «ذُق يـا صـديقى.. جـرِّب، إنها الموضة!»..

وكـان يعبّ من كوب الشـاى، ويتجرعـه كالشربـة بوجـه مُغضّن يحفل بالألم والاشمئـزاز. بين الحين والآخر يرفـع حاجبيه متظـاهراً بالاستمتاع.. ويشرب!

ولما لم يستطع السيـد كميت أن يهدئ من خفقـات قلبه ــ وهـو يتطلع إلى الأستاذ بـاسيلى ـ أو يوقـف سيال العرق البـارد الذى راح يجرى ويتجدد على جبينه .. جرى خارج المقهى هارباً بجلده..

ولم يتوقف إلا فى غرفة النوم!

— ٣ —

تبسمت السيـدة حرم السيـد من جانب فمهـا وهـى تناول لطـوفى الطبق، وغمـزت بعينها «عنـدما تتـزوجين يـا طوفى. من سيحمل عنـا الأطباق؟!» فسقط الطبق من يـدى طوفى.. وأدارت وجههـا فى استحياء وهى تبتعد..

«ماما، لا أحب هذا الكلام!»..

إلا أن رموشهـا كانت تـرتعش وحبة عينهـا تتراقص فى اضطراب، وهـى تسبل جفنيها على أغرب بريق عندما ذكرت كلمة: «تتزوجين»!

— ٤ —

الحلقة ١٩٤٨، مشاهدة ممتعة :

«آه سوزى!.. أوه.. أوه!.. بيتى هه! آه!! بيتى..»..

دخل طفل فتسمر عند الباب وفقد لونه، تنحنح..

حاول الابتسـام وقال «هـاى مام، هـاى طانط.. مـاذا تفعلان على سريرى؟؟»..

بصعوبة بالغة.. من خلال اللهاث والهنّات والتأوهات، قيل..

«اذهب يـا جَيْفــر، اذهب.. اذهب الآن يـا جيفــر! اذهب.. اذهب.. اذهب..» فذهب!!

اللهم اجعله خير :

بعد الحلقة نام السيد كميت فرأى نفسه يضاجع الممثلة!

.. وحلمت طوفى بأنها تضاجع محمد..

— ٥ —

فى الجامعـة، وقف محمـد وزملاؤه أمـام سلم المدرج يعترضـون الطريق شـاهرين العصى والمقشّـات.. كان محمـد يتكىء على مقشته منفوخ الصدر تبدو عليه الزعامة!

«هش ش .. من هنا! هش ش ش.. أنتن من هناك!»..

«الطلبة تصعـد من هذا السلم، الطالبات من السلم الآخـر.. الكلام واضـح»..

«الكـلام واضـح».. «سيستمـر هــذا من الآن فصــاعـدا.. لا نحب التكرار!» «أنتم تفهمـون طبعاً من نعنى! لا نريد التـوضيح أكثر حتى لا نخـدش حيــاءكم!» «هش ش ش.. من هنــا!».. هش ش أنتن من هنـاك» «.. أحسنتم.. أحسنتم.. بـارك اللـه فيكم!.. هش ش ش.. هش ش ش..»..

— ٦ —

الحلقة ١٩٦٧، مشاهدة ممتعة:

فى هذه المرة، دخل جَيْفر فتسمّر عند الباب، لكنه لم يتنحنح، قال فى جرأة: «هاى مام. هاى طانط، ما الذى تفعلانه على سريرى؟!!»..

فقيل ..

«اذهب يا جَيْفر ! »..

فلما لم يذهــب زجراه.. زجراه بعنف، وبصـقـت إحدى المرأتين على وجهه فانكفأ أرضاً، وارتطم رأسه بالحائط فـ..

فاستعاد الذاكرة !!!

— ٧ —

فى الجامعة، كانت الجدران ترتج..

«يجب أن نقتص من حربى.. يجب!»..

فجـاءت الشرطة وأغلقت البـوابـات وأخلت الأحياء المجـاورة.. ثم جـاءت عـربـات خضراء داكنـة وراحـت تتقيأ جنـوداً لهم نبـابيت.. وضباطاً لهم أجهـزة اتصـال.. وأكوام عاليـة من الحجارة لها سنون.. و..

«يجب أن نقتص من حربى.. يجب!»..

فبرز محمد وزملاؤه، وراحوا يضربون المتظاهرين بالمقشات!

فى البـدايـة، حـاول محمـد إقنـاعـهم أن حـربى رجل طيب ففشل، وبصقوا على وجه.. قال لهم محمد أن حربى لما أحس الجوع راح يأكل من قريتـه «وكلوا من طيبـات ما رزقناكم» لكنــه لم يشبـع فقدمـوا له الطعام وقـالوا لـه غداً تفـرج يا حربى » فأكل أكـل لكنه لم يشبـع ، لم يشبـع .. فأكل القريـة التى تليه حتى يشبـع.. «يا غـلام كل مما يليك!» وفى هذا تـوفير للوقت والجهد وتكلفـة النقل وعناء السفـر إلى الأماكن البعيدة!

كـانت كرة اللحـم المتظاهـرة قـد تمددت ونبت لها زوائد عديـدة، وتحولت إلى أميبـا بنيـة عملاقـة مـدت أحـد اذرعها فـابتعلت محمـد ورفاقه، ثم راحت تهضمهم!.. ثم مـدت ذراعاً أخرى متراخية محاذرة تتحسس بها البوابة، فاندلعـت النبابيت تنغرس فى الذراع وتفجر منها الدم..

لم يضع محمد الفرصة، فتسرب مع زملائه من الخلف متجاوزين الجسم الأميبى الهاتف العملاق واحاطوا بإحدى العربات الخضراء الداكنة.. ضربوا السائق على رأسه ففقد الوعى وجلس محمد مكانه فالتف رفاقه من حوله وراحوا يهلّلون ويكبّرون، ويتوعدون النظام، والعميد والشرطة، ومجلس الأمن، والكافرين! لكنهم وقعوا فى مشكلة:

(لم يكن محمد ـ أو أى من رفاقه ـ يعرف القيادة!) فصرخت أجهزة الاتصال فى آذان الضباط بأمر صارم مختصر:

«دش رؤوسهم!» فاندلعت النار..

●●●

وفى المقهى، هبّ السيد كميت من مجلسه، وهوى بكفه على وجه الأستاذ باسيلى:

«أنت لص يا باسيلى!.. أنت تقرص الزهر!»..

فنهض الأستاذ باسيلى مشدوهاً، وهو يتحسس أثر الصفعة المؤلمة على خده غير مصدق.. فجاء رجل من المنضدة القريبة وأدار ذقن السيد كميت فى هدوء:

«لماذا تضرب هذا الرجل أيها السيد؟؟»..

فألجم لسان السيد كميت وبسط راحتيه أمامه وهز كتفيه فى لامبالاة مستعداً لشرح موقفه، إلا أن الصفعات سبقته وراحت تطرقع على أجزائه من كل اتجاه.. وترن فى المقهى وكأن أحدها صدى للأخرى، فجرى السيد كميت هارباً بجلده من المقهى.. ولم يستقر إلا فى غرفة النوم!

●●●

وفى الصباح، قام السيد كميت فصلى الصبح خمس ركعات، واستغفر الله وهو ساجد على ما بدر منه ليلة أمس فى حق صديقه الطيب.. ثم فتح التليفزيون ليعرف الأخبار، فوجد حربى مكوماً على

الأرض، والصفعـات واللكمات تطـــرقع على رأســه وأجـــزائه من كل اتجاه.. وترنّ وكأن أحدها صدى لــلأخرى.. فتدلت فكه السفلى، وظل ينظر إلى الشاشة فى بلاهة طفل رضيع!

— ٨ —

الحلقة ١٩٩٠، مشاهدة ممتعة:

فى هذه الليلة كان الغطاء يتعذب..

ينبعج ثم يتخدَّد.. يتلوّى.. يعلو.. ثم ينخفض.. يمارس انقباضات وانبساطات متتابعــة ثم يهدأ، فيتمدد.. ثم يتكور، وينقبض، وينبض.. ويظل ينبض. فيصرّ السرير وتصطفق ألواحه الخشبية و.. أما اللهاث فكـان عاليـاً صاخبـاً هذه الليلــة.. وقـد بلغ أرقامــاً قياسيــة يصعب تحقيقها فوق أى سرير آخر، فدخل جَيْفر..

دخل

كان يحمل صينيــة فضية شديدة الفخـامة، يستقر فوقهـا كوبان كريستاليان شــديدى الأناقة.. بكل منهما مرشفة بـلاستيكية شديدة البياض، فانحنى أمام السرير..

كان الغطاء متكوراً فلم يرهما.. قال:

«هــاى مــام، هــاى طــانط.. عصير؟؟» فبرزت الأيـدى فــاختطفت الأكـواب ودخلـت بها تحت الغطـاء. ثم سمع جَيْفـــر صـــوت المرأتين يجرعان.. يجرعان بصوت.. صــوت عال لا يُحتمل، فحشر أصبعيه فى أذنيه حتى اختفيا تماما. وزمّ عينيه.. وكزّ على أسنانه متألماً بشدة و..

وعندمــا تجشّأت المرأتان، ثم عادت الأكــواب فارغة بــدون شكر.. انحنى يتلقى الأكواب الفــارغة على صنيته بــابتسامة واسعــة ممتنة ـ كأمهر نادل ـ ثم استدار مغادراً:

«باى مام. باى طانط.. استمتعا بسريرى!»..

— ٩ —

عند السَّحَـر، رأى السيد كميت نفسه مُسجًّى على بلاط الصـالة.. كلهم جثث! أحس بلـزوجة الغـاز السـام تسد مسـالك رئتيه بكفـاءة الغراء السريع..

اختنق ..

راح ينظـر حولـه بعينى طفل يقـاوم النوم، مفتشـاً عن ذلك الثقب الصـغير.. الصغير.. الـذى منه، كـان كل الغـاز يتسرَّب طوال الـوقت! وعندما سقط رأسه كالحجر: أنشقّت الأرض، وابتعلت منزلهم..

— ١٠ —

وقفت الفتيـات أمـام الكـاميرة ينظـرن حـولهن كأنهن على وشك الانفجار بالضحك بينما تصلب الفتيان داخل مـلابسهم الشتوية وقد زموا شفاههم:

«آه.. أعـرف طـوفى.. كانـت محبوبـة عنـد الجميع».. »آه.. كـانت مؤدبة، لا تكلم الفتيـان».. «آه.. لقد شاهدنا المجـرم وهو (...) الآنسة طـوفى تحت شاشـة العرض، ولكن الظـلام كان مشكلـة فلم نستطع الـرؤية جيـداً!».. «آه لقـد قمنا لنجـدتها بـالطبع، ولكن كان المجـرم يشتبك معها بطـريقة يصعب فكّها، وكان الظـلام مشكلة فلم نستطع الرؤية جيداً!»..

« إنـه ليحـزننى أن توجهـوا لى مثل هـذا الاتهام المشين .. صحيح إننى عاطل ، ولكننى لست منحلا على أيـة حال ! .. لا ، لست متزوجا ، ولكننى أجد كفايتى وزيادة فى زيارة السينما .. فالأفلام دائما ممتعة . نعم ، لقد حـاولت التمثيل ذات مرة ولكن المخـرج لم يوافق .. لـو كان وافق كنت اختلفت جذريا الآن ، ولكنـه لم يوافق ! .. لا .. لم تعد هناك مشكلـة الآن ، فلقد جـاء منذ قليل بصحبـة أحد المنتجين ليـوقع معى

عقدا .. لبطولة فيلمه القادم .. كان ذلك أمام الضابط» « نعم ، لقد وقع معه عقـدا » .. « هذا زمان لا يعجبنـا ، أليس كذلك ؟! .. » « حقـا ، جاء الـزمن المعطـوب »! .. « طبعـا ! إننى سعيـدة بـالطبع لأن مـدرستى سيصبح اسمهـا مدرسة (الآنسـة طوفى) فهى صـديقتى .. أحب أن أسمع طحاوى ! » .

« فى نظر الطب ، ليست هنـاك مشكلة .. بـامكانى أن أجـرى عملية بسيطـة للفتاة المنكـوبة ـــ بلا أتعـاب ـ لتستعيـد عذريتهـا وذلك فى عيادتى الخاصة : بشـارع ب. د. تليفون ٩٢٩ ثلاث أربعات ستة .. لا، أننى أحب الدولة ولكن تليفون عيـادتى هو ٩٢٩ ثلاث أربعات ستة ! أى أغنية لطحاوى .. » .

« اســترخ يا جيفر .. أنت نـائم الآن .. حـاول أن تتـذكر ! » .. « هم م م ! » .

وبدأت النقـود تتدفق على طوفى .. مئات التبرعـات كل يوم .. وآلاف العروض بالزواج : صعاليك .. ورجـال مجتمع .. لصوص ، وأثرياء .. فنانين مشهـورين وكتاب .. فقلبت طوفى شفتهـا ، وهى تقشر التفاح : « لا يعجبنى أيا منهم !! » .

وانتقلت العائلـة إلى منزل جديـد يطل على النهر ، بحديقـة واسعة وسلالم متحـركة .. بينما هام السيد كميت على وجهـه يجوب المقاهى ويسأل البشر عن الأستـاذ بـاسيلى ، وعن حجر النـرد المفقـود .. هل عثرت على الحجر المفقود أيها السيد ! « بلاوى ! » .

بينما ظهر المجـرم فى أول أفلامــه على الشاشـة : « آه ! فيفى !! آه ، آوه ! عبده !! »

فمالت طوفى على أذن أمهـا وهى تهمس « ماما ، هذا هـو الذى ... » فـابتسمت الأم ولكـزتها فى جنبها وهـى تغمز ، هـامسـة : « فى جمال القمر يامضروبة ! » فاستحت طوفى وضحكت بصوت منخفض .

وقلب المسئول الكبير شفتـه فى امتعاض أمـام الكاميرة وهـو يلوح بكفــه « إننى أتعجب مـن تعـاطفكـم الــزائد مع الفتـاة واهتمامكم

بـالقضيـة.. بينما التحـريـات التى وصلتنـا تثبت أنها سيئـة السير والسلوك ! » .. « عنـدما يجيء الضابط مـن هذه الناحيـة ، فتوكل على الله ! » .

« هم م م .. قالتا لى تعالى يا جيفر نم معنا .. فرفضت .. قلت لهما ، لا أريد أن أنـام الآن ! فأعطيانى جـروا صغيرا وملابس رعـاة البقر ، وشيكـولاتـه لـذيـذة ! » لماذا رفضت يـا جيفـر .. تـذكـر ! » .. « ذق يا صديقى .. جرب .. إنها الموضة ! » .

« لقد جاء الضابط من هذه الناحية يا شيخ محمد ، فهل أتوكل على الله ؟ » .. « توكل ! » « تصـور يا بـاسيلى ، يقول لى (يـا نوح !) .. » .. « لماذا تضرب هذا الرجل أيها السيد ؟ » .

« لا أعـرف .. لا أعرف .. ولكن إحـدى المرأتين كـانت جميلة جـدا فأحسست أنها ليست أمـى.. أمـا الأخـرى فكـانت لا تشبهنى على الإطلاق !! » .

« سيمر الأتـوبيس السياحـى من هذا المكـان الساعـة العاشرة .. عندما يمر ، توكل على الله ! » .. « الآن لا يشـهرون مدافعهم الحديثة فى وجوهنا ! » .

« هش ش ش .. أنتم من هنـــا ! هش ش ش .. انتن من هنـــاك » .

« لقد مر الأتوبيس من المكان يا شيخ محمد .. فهل أتوكل على الله ؟

« توكل ! » .

« كـان الفراش دافئـا وعطن الرائحـة فقلت لهما : لا أريد أن الآن، فقبلتنى ! ..

قلت : سأقـوم لآكل بعض الشيكـولاتـه .. إننى أحبهـا ، فم برجليهـا طوقا حول وسطـى وضغطت فتأوهت .. قلت سأقوم مع الجرو .. سألعب مـع الجرو إننى أحبـه ! فـراحت تعتصرن ثـدييهـا فصرخت .. صرخت .. قلت : لا أريد أن أنـام الآن .. لا أ فالتقطت شفتـاى بفمها وراحت تمضـغ .. راحت تمضغ .. بينما الأخرى كانت تفعـل أشياء غريبة .. ففررت منهما مخافـة أن يأ

كما آكل الشيكولاته !

« فوقك مدفع ، فهل تستطيع أن تـراه ؟! » .. « أنت لص يا باسيلى ! أنت تقرص الزهر ! » .

« جيفـر .. مـا اسمك الحقيقى ؟! » .. « ولكـن عفـوا يـا سيـدى .. ما اسمك الحقيقى ؟! » .

« اسمى جعفر ! » .

كـانت الأم تكـوى فستـانها الأحمر « مـــاذا تقـول هـذه المغفلـة يا طوفى؟! » فقلبت طوفى شفتها « تغوغىء ! » .. « م م م ! » .. (ولكنها لم تكن تغوغىء) .

« هل رأيت حجر النرد المفقود أيها السيد ؟!» لا للأسف لم أره أيها السيد .. ولكن هل رأيت المدفع ؟!» لا لـلأسف لم أره أيها السيد ، فأنا أبحث عن باسيلى » « وأنا أعد المدافع ! » .

وفى الشوارع . . الميـادين .. وداخل البيـوت ، كانت أغنيـة طحاوى الجديـدة تـرف مع الهواء فيتنفسها البشر ويتمايلـون مع الإيقـاع .. كانت كلماتها تقول :

طـوفى طوفى ـ هكذا طوفى ـ لم تتغير
كل الأشياء كل الأشياء تتغير ولكن
طوفى ثابتة لا تتغير
وإن كانت تغيرت ـ طوفى ـ فإنها
قـد تغـــيرت حتمــــا إلى الأحسن
ومن له رأى آخر ..

فليشرب من البحر ! .

●●●

وفى القفص ، ظلت ببغـاؤهم ترفـرف وتتصـــارخ وتنقر الحديـد .. كانت تقول طوال الوقت « غاز ! غاز ! غاز ! » ولكن ..

لا أحد يفهم .

ممتع جـــدا أن تنحنى ، وتقلـب تضـــاريس وجهك بشكل درامى مـؤثر منـاسب تمامـا لقيمة المبلغ الـذى سينطلق من فمك كقنبلـة تختبىء فى آخـر الجملـة التى استغرقت وقتـا طويـلا فى صياغتهـا حتى تحوى القدر الكـافى من المسكنة المدهشـة والدافعـة حتما إلى المراد ، ويمتلىء وجهـك بخليـط عجيب مـن الأسـى والشجـن وابتسامات الإمتنان المرطّبة للجو، والمطبوخة جيدا فوق مرآتـك المكسورة ، وشعر ذقنـك الذى لابـد أن يكون نابتـاً ، ثم تأتى لحظة الذروة سريعة جداً ، ربما أسرع ممـا تتوقع مثل ابن البدو الذى مارس الجنس لأول مرة فى حياته ، وبمجرد أن لامسَ يداه نهدى المرأة انتهى كل شىء ، وضحكـت المرأة كثيرا ، ولعنت كبير قبـائل البـدو ، واليوم الذى فرّوا فيه من وهج الصحارى إلى ربيع المدن !!

لا تضطـرب وحـافظ على درجة التهـدج فى صـوتك ، وانْسَ تمامـاً وهدة الصحراء « وعنطزة » البـدو فشموخ العمارات قادر على إقناعك بأن تميز البـدو محض هراء ، وأن الصـوت الخفيض أجدى كثيراً من الصوت العالى الذى لا يناسب سوى مضارب الخيام ، وأن الذل صفة ليست سيئـة السمعـة كما يظن البـدو ، وانطلق الجملـة حسب آخـر صيـاغة تـوصلت إليهـا فى تمريناتـك عليها، وانْسَ تمامـاً الشخص ـ الضحية ـ الـذى ستقترض منه ، انْفِهِ تماماً ، وابعـد عينيك عن عينيه ، وتعامل مع الجملة كأنك تهمس بها لنفسك داخل حجرتك المغلقة جيدا (أريـد عشرة جنيهـات حتى أول الشهـر) ، لا داعى من (حتى أول

الشهر) هذه ، فربما كنت فى أول الشهر فعلاً ، وربما الباقى على أول الشهر أيام قليلة تخجلك حين تراه مرة أخرى ، ولا تسمح لك بالفترة الطويلة المريحة الناسفة لفكرة السداد من الأساس . إياك أن تتهور ، ويصيبك الملل من كثرة تدبيج الأعذار ، فهذا ينسف كل شىء ، ويقلب لحظات نشوة الاقتراض إلى ساعات ذل ومهانة تدوس بحجمها الضخم فوق قلبك ، وترغمك على عدم الخوض فى طريق الاقتراض الممتع مرة أخرى . وحاول ـ بقدر المستطاع ـ أن تكون أعذارك حتمية وملحة وضرورية لا تحتمل التأخير لحظة واحدة ، كأن تكون على سفر إلى نجع البدو فى القطار المتحرك الآن وقيمة المواصلات بالاضافة إلى علبة السجائر عشرة جنيهات بالضبط ، أو أن إيجار حجرتك ينقصه هذا المبلغ ، وأن صاحبها اللئيم سيطردك منها . مهم جدا أن يكون العذر محددا لقيمة المبلغ بحيث لا ينقص مليما واحدا ، ولا تكن غشيماً كما البدو وتذكر الجوع تحت زعم أنه لا يؤجل ويحمل قدرا أكبر من المسكنة المؤثرة ، فالجوع لا يتناسب تماما مع العشرة جنيهات ويكفيه نصفها أو ربعها ، وربما يفعلها ضحيتك ويعزمك على « سندويتشين» فولا ,وينتهى كل شىء وتصاب المؤامرة فى مقتل.

أكد على وعدك بالسداد مرات عديدة، حتى يطمئن ضحيتك ، ولا تقترب من مقولة البدو (الحُرّ إن جاع نَهب) فهى لا تناسب سواهم وتموت أمام أول ماكينة تذاكر فى « مترو » الأنفاق .

أعرف أن مسألة الأعذار ثقيلة ومملة ومراوغة ، تغريك سهولتها وأنت تعددها فى حجرتك حتى تصبح قوية حين تطلقها على أذن ضحيتك ، ولكن عند لحظة المواجهة ، وفمك مصوّب على أذن الضحية يبطل مفعولها تماماً ، وتتحول إلى أسلحة فاسدة .

ولكنك لا تقلق فهذه الأعذار أو الأسلحة مهمة مع التجارب الأولى

المراهقة ، وتذهب أهميتها مع رياح الدربة والدراية بدروب التجربة ، عندها تصبح أكثر جرأة فى التعامل مع الموضوع فى منتهى البساطة ، وتتمايل الجملة على لسانك فى زهو هكذا (أريد عشرة جنيهات) فقط ، ولا تضف كلمة واحدة .

الشىء المهم الذى كان يجب تحديده منذ بداية القصة هو أن يكون ضحيتك رجلا كامل الرجولة ، وحاذر أن تكون امرأة حتى لا يشمت البدو ، واحرص على أن يكون قصيرا بالقدر الذى يجعل وضع فمك فى أذنه مريحا جدا ، وييسر لك وضع يدك على كتفه بحنان وشوق شديدين ، فداخل هذا الوضع لا يبقى له مفر سوى أن يضرب يده فى جيبه ، ويخرجها بسرعة مدهشة ، تطمئن عليها ابتسامة وجه أبى الهول التى هى لك وحدك !!

فاجأنى طابق جديد، يعلو الطابق الأرضى.

وأدهشنى أن الفيللا، التى اختزنتها الذاكرة منزوية فى ذلك الموقع البعيد ـ منطفئة فى لون الطوب الأحمر، والسياج الحديدى الصدىء، محاطة بالرمال، بلا تفاصيل معمارية ـ ارتفعت واتخذت ملامح القصور، وعمرت بالتشكيلات والفراغات والألوان، حتى أننى سألت، لأتأكد من مقصدى قبل أن أقترب من الباب.

نظر إلىّ حارس الفيللا المجاورة بارتياب، وأنا أخبره بأننى ابن الفقيد. وعاد الرجل ـ بعد أن فتحت باب حظيرة السيارات ـ يستطلع، واقترب أكثر ، يتفحصنى ، وأنا حائر بين فضوله المتشكك والمفاجأة التى كانت تنتظرنى فى ذلك المكان المظلم الرطب.. ثلاث سيارات، لم أستطع ـ لشدة قدمها ـ تحديد هوياتها. وكان الرجل مستمرا فى التحديق إلى وجهى، وكان يتمتم: سبحان الله.. سبحان الله!. فقلت إنه يحاول استثمار الموقف، كالعادة، من أجل النقود، أو ربما كان يحاول أن يعبر عن مواساة حقيقية. أعطيته بعض النقود. أخذها وانصرف يواصل تمتماته.

شعرت بالحزن، لأول مرة منذ ملابسات الوفاة، حين دخلت من الباب الخارجى فدهمنى تعدد التفاصيل فى المساحة الكبيرة المحيطة بالمبنى.. كنت أحسبها شريطا ضيقا يلى السور، ويكفى ـ بالكاد ـ لغرس صف من الأشجار، ولكننى وجدت حديقة متنوعة المزروعات تحيط بالفيللا، وحمام سباحة كلوى الشكل، تعطن ماؤه، وحوله مظلة ومقاعد خيزرانية بيضاء.

صعدت الدرجات الرخـامية القليلة، وفتحت الباب الخشبى الثقيل، فـاستقبلتنى قاعـة غنية بـالأثاث والمفـروشات والستـائر والثريـات والجداريات.

وجدت حجرة النـوم القديمة كما هى، لم يغير موقعهـا، وان تبدلت الموبيليا والمفروشـات، وطغت عليها ألوان صـاخبـة. وعاودنى شعور بـالأسف، مختلطا بـالحزن، حين اكتشفت ـــ للحظات ـــ أننى لم أكن إيجابيا أمام عناده، وتركته يختـار عزلته، ويسقط ميتا وهو يتجول فى سوق للمهمـلات، ويبقى جثمانه مجهولا فى ثـلاجة المستشفى، حتى عدت.

وكـانت خطتى أن ألقى نظـرة على الطابق العلـوى، قبل أن أغـادر الفيللا. كانت القاعة، على وضعها القـديم، تبدو كصالة كبيرة فى شقة، لا صلة لها بما فوقها، هل ثمة سلم بالخارج؟ خرجت لأتأكد من أننى خلال تفقـدى للحديقـة لم أجد سلما للطـابق العلوى. كـانت النـوافذ العليا مغلقة، كأنها لم تفتح من قبل.

عدت للقـاعة متمهلا، أحاول ـــ من خلال خبرتى الطويلة بـه ـ أن أصل إلى مـرمى تفكيره فى اضـافة طـابق ـــ لم تكن لـه بـه حاجـة أو ضرورة ـ ويسد الطريق إليه، فيتركـه لى بلا سلم!. كأنه يرسم لغزا لم يهتم بأن يحكيـه لى فى زمـن مضى. ولما أضفت الأمـر إلى سلسلـة ماصـدر منه فى السنوات الأخيرة من أمور مستهجنـة، توارت الحيرة. وجلست أشعل سيجارتى، تشاغلنى فكـرة طارئة، أن أحتفظ بالفيللا، وأقيم لها سلما، واستبعـد فكرة البيـع. كان لـدىَّ ـــ فى الأيام القليلـة الماضيةـ هاجس غامض يتحـدى إرادتى فى التخلص منها، بالرغم من أننى كنت أردد أمـام الجميع: مـاحاجتى إلى مبنى كئيـب صممه هـو وبناه بنفسه؟!

.. لنتغـاضى عن عيب السلم الداخلى، وعن أشيـاء أخرى لاتحتـاج

إلا المراجعـات بسيطة: صراحـة الألـوان وزعيقهـا.. تداخـل المكونـات وازدحامها..

واجتذبتنـى حجرة النـوم لأتوقف أمـام محتويـاتها مرة ثـانية.. خليط من قطع الأثاث، متنافـرة، مغيبة فى غيمة من غموض. استقبلنى مقعد خيزرانى هزاز، يميل ظهـره المشغول بالخوص إلى الأمام، كأنما كفّ عن الحركـة حـالا. وفى الصـدارة، سرير معـدنى أسـود، تتميـز شخصيته بأعمدته الاسطوانية المحلاة بوصلات من النحاس الأصفر له لمعة طـازجة، وشباك يواجه الداخل، يـرتفع مستوى الفراش كثيرا، وتغطيه مشغولات من القصب تشبه الأرابيسك، وتنسدل عليه شرائط من أقمشـة رقيقـة، فيما يشبـه الاهمال. وجعلنى ذلك كلـه أنقبض، كأننى أواجه ضريحا.

دارت عينـاى مع الحوائط الأربع، وتـوقفنـا أمـام المغطى تمامـا بستـارة ثقيلـة داكنـة الزرقـة، فيهـا تموج مضطـرب، كأنها أعـدت للإختباء.. فهل يكون وراءها منفذ إلى السلم الغائب؟

أزحتها عند المنتصف، فاستجـابت فى سهولة، وكشفت إطارا كبيرا لصورة ضوئيـة لفخذين كجبلين يملآن وجه الصـورة ويخفيان بقية تفاصيل الأنثى خلفهما.

كنت أهـز رأسى، محاولا كبح انفجـار الضحك، ولعلنى كنت أردد بعض الكلمات مأخوذا بما كانت تخبئه الستارة. ولكنى لم أتحرك من مكانى، ولم تكتف عيناى بالنظرة التى اكتشفت، بل إننى جلست أمام الصـورة، وخليـط من المشـاعـر بينهـا البهجـة ـــ يجعلنى أبتسم وأستشعر وهجا دفيئا لم أفلح فى التنصل منه أوفى محاذرته، ونتوءات من المتعة تحتشد تغالب توجهات الوأد.

وكان فـادحا أن ينتهى كل ذلك، منتهكـا بالصـوت القبيح الصـادر عند فتحة الباب:

أهلا .. ياباشا !

لم يكن صوتها، فقط، هو القبيح. بها مايشبه التحفز. كانت تقترب لترانى أكثر. لم أسأل من أنت وكيـف دخلت، لأن دهشتى كانت أكبر.. كانت فى رداء الحمام، وشعـرها مبلل. وكـانت هى التى قالت: مـاأشد شبهك به! فأدركت أنها تعرفه. قالت: تأخرت كثيرا.. كنت فى انتظارك!

وكان يجب أن أعرف: هل أعرفك؟

خطت، مطمئنة، إلى خلف سـاتر فى الحجـرة المتسعة، وضحكت فى ثقة، تظهـر أنوثـة خافيـة تمطت فى رنين وطول ذيل الضحكـة. قالت وهى تبدل ملابسـها: عـرفتنى قبل أن ترانى..! وامتد اصبعها يشير إلى الصورة، وقالت: كنت تتأمل فىَّ منذ لحظات!

وعادت تضحك.

قلت : لايمكن أن تكونى زوجته!

أسرعت تحدد، فى بساطة : بل محظيته!

وكانت تحتاج إلى تحديد أكثر : أيهن؟

ردت، بنفس الهدوء والبســاطـة، وإن شـابهما درجـــة من تحد: عرفتهن كلهن، من كن قبلى، ومن مررن بى.. ولكننى أنا التى بقيت!

وخرجت من خلف الساتر فى مـلابسـها، لتشعل سيجارة، وتتحرك خطـوات قليلـة لتقف فى مـواجهتى، وكنت لاأزال محتفظـا بجلستى، وقالت هى تمثل انحناءة: لأكون فى شرف استقبالكم!

قدمت لى سيجـارة. رفضتها، وأشعلت واحـدة من علبتى، خرجت بها إلى القاعـة. جلست، وكانـت فى اثرى، تحتل مقعـدا، وترفع سـاقا فوق ساق. قالت: أنـا أعرف عنك كل شىء، وأنت لم تسـألنى ـ حتى ـ عن إسمى!

استوقفتنى، للحظات، فكـرة أنها، فى مجملها، ليست بشرية.. كيف،

ومن أين تواجـدت فجأة، وتجللت ـ هكـذا ـ كل هذه المسـاحة، هـونا، وتجلس أمامى مسترخية تسحب أنفاس الدخان.

قلت : اسمك ستحتفظين به، لأننى سأراك، بعد دقـائق، لآخر مرة، وأنت تحملين حقائبك مغادرة!

لم يبد على وجههـا أنها انفعلت. رفعت يدهـا التى تتعلق السيجارة بين اصبعين منها، وقـامت متشامخة، متهـادية، لتـواجهنى واقفة، ثم تـدور حول مقعـدى، وتعبث أصابعهـا بشعرى. تسـاءلت فى ليونـة: أهكذا يخاطب الأولاد أمهاتهم؟

تلقت لطمتى الخاطفـة ثابتـة، كأنها توقعتهـا. ولم يتأثر صـوتها، بنفس الليونة واصلت: أو، من فى مكانة أمهاتهم؟!

لطمتها ثانية. صاحت: فى خدمة فراش عجوز عربيد.. على الأقل!

لطمتها ثالثة: ثم تتالت لطماتى، حتى انهارت. سقطت تحت قدمىَّ، وقامت تتشبث بساقى، وفى جسمهـا انتفاضات. رفستها أتخلص من تعلقها. أنصـال أظافرهـا تصل إلى جلدى. تحركت أبتعـد، لأخرج من دائرة الهوس. ظلت مستجـوزة على سـاقىَّ، وأوشك قماش بنطـالى أن يتمزق. كانت تـزوم، ورفعت إلىَّ وجها فيه نشوة مرعبـة. أفلتت ساقا لتشير بيـدهـا إلى حـائط قـريب. غـاب عنى، وسط ازدحـام المكـان بالأشياء، أن ألتفت إلى مجموعة من السياط معلقة على الحائط. وكانت يـدها لاتـزال ممـدودة إلى الأمام، وسبـابتهـا تشير إلى حلقة السيـاط يتوسطها رأس غزال، ووجهها القانى يعرق، وعيناها شبه مغمضتين، ترتفعان إلىَّ فى رجاء.

لم أكن غير مدرك.. كنت غير مصدق، واكتنفنى الـذهول تماما وأنا أراها تـدخل فى موجـة صراخ، وتفلتنى وتشق ثوبها بيـديها، فيتعرى جسمها المكتوى بخطوط طولية داكنة.

تركت نفسي أسقط فى أقرب مقعد، أخفق فى تثبيط كهارب الانفعال فى رأسي، وبى خوف شديد لخلـو جيبى من شريط حبات الدواء. كان الـواجب أن أخفف من توتـرى فألجأ إلى استراخاء طـويل، ولكن ذلك كان مستحيلا أمام الحقيقة الماثلة أمامى فى دائرة السياط على الجدار، والجسد الممزق فوق السجادة.

صحت فيها أن تنهض وتمضى من أمامى. تحركت، أخيرا، وقامت متباطئة، لترتمى ـــ مهيضة ـ فى مقعد. تماسكت، بعـد قليل، واعتذرت أولا، ثم قالت: أرأيت؟!

قلت : لامعنى لأى كلام الآن.. قومى وارحلى.

قالت : لن أرحل. قلت، ضجرا: أرجـوك.. هذا يكفى.. لاأريد أن أراك هنا.. خذى ماتشائين و غادرينى..

اعتدلت، غير عـابئة بعـريها: لم أنتظر لتعطينى أنت.. لقـد أخذت!. ولما وجدتنى أنظر فى عينيها متشككا، واصلت: نعم.. أنت الآن ضيقى، فى مسكنى!

قلت : رأيت شذوذك، وجنونك ـ الآن ـ يتأكد لى!

ردت : هذا مافعله بى العجوز.. ألا أستحق ما يقابله؟

حاولت أن أقول هادئا: هذا بيتى.. أنا وريثه الوحيد..

فصاحت هى: وأنا أقول لك: أنـا مالكة هذا المسكن.. واحتفظت بما لايخصنى:

كانـت واثقة، وعـادت إلى التدخين، وأكـدت: لدىَّ الأوراق مـوثقة.. والمحامى موجود، يمكنك مراجعته..

غرقت فى صمت بئر المفاجأة، أحمل رأسى المتثاقل بين كفىَّ، أحدق فى امرأة شبـه عاريـة، تجلس أمامى راسخـة، وتصنع سحابـات من الدخـان وساحابـات أخرى، غير مرئيـة، من روائح نفاذة لهورمونات الأنثى.

تراجعت، بصعوبــة، عن التدهلز فيها، وشــاركت هى، بصوتها، فى إبعادى عن بقعة تتحرك رمالها.. قالت:

ـ حين رأيتك تنظر فى صورتى، أردتك!

قلت، مغلقا بوابة الــريح الصافرة: تأكدى أننى سأراجع كل شىء، ولن أدعك تأخذين كل شىء.. لمجرد..

قالت: تأكـد أن القسمة عادلـة.. ستضيف أرصدتـه إلى أرصدتك.. ونصيبك هنا فى انتظارك..

وأشارت إلى الطابق العلوى..

قلت، أنهى مواجهتها : أين السلم الصاعد إليه..

انقلبت مقهقهــة، وأخذت تسعل، ولما هدأت، أخـرجت مفتاحـا من جيب بفستانها الممــزق، ألقت به إلىّ، ثم قــامت وقالت: إتبعنى. فقمت وتبعتهــا. عادت إلى القهقهـة ونحن نغــادر القــاعة. دخلت إلى حجــرة النوم، وأزاحت ستارا ثقيلا، فظهر باب مغلق..

قالت : خذ طريقك إلى نصيبك من ميراث أبيك!

غادرت الحجــرة، وتركتنى أفتح البــاب وأدخل إلى ممر مظلم ثقيل الهواء. تحسست طــريقى حتى عثــرت على بــدايـــة السلم. سمعت صياحــا: سأنير لك المكان. ورأيت السلم، وكنت عنـد منتصفه. أكملت إلى أعلى. وصلت إلى بدايــة ممر علوى، سرت فيــه، دار بى، وانتهى عند السلم. كــان الممر نظيفــا، مفروشا بــا لموكيت الأحمر، جيـد الإضاءة، تفتح فيه حجرات متراصة، كطابق فى فندق.

تشــوشت حين حاولت اصطيــاد فكرة واضحــة تربط بين مــاأرى ومتتالية الأحداث التى سبقت صعودى إلى هذا المكان الصامت. أبواب مغلقــة، وعلامــة استفهام ضـخمــة، وحيرة وتخبط، واقتراب من مجال الفوضى. لماذا أعطانى هذه الحجرات المغلقة، بهذا السلم الخفى؟

أمسكت بمقبض أقرب حجرة إلىّ. فتحت الباب، وسمعت ـ فى نفس الوقت ـــ قهقهاتها تتصاعد عندى.. كأنها ترصد تحركاتى. ونسيت أمر القهقهة وأنا أحاول أن أعبر، مع عينىَّ، هذا الترتيب السخيف: أكوام من المخلفات؟!

أسرعت إلى الحجرة التالية: أكوام من أنواع أخرى من المهملات!. كانت بقايا الأشياء تملأ كل الحجرات.. مصنفة، متراصة، معدة للعرض، لاتراكب ولاعناكب، واضاءات قوية تعطى لهذه التجمعات الوحشية من سقط المتاع والمعدومات وجودا راسخا.. كان حقيقة، إذن، ماتردد عن شغفه الشديد بارتياد سوق المخلفات فى كل يوم جمعة!

تسللت الهزيمة إلى قلبى. خلفت ـــ مطعونا ـ الأبواب مفتحة، وأخذت قدماى تتحسسان درجات السلم، حتى انسحب الضوء عند آخر درجة.

توقفت فى الممر المظلم راغبا فى البكاء، فاختلج صدرى وبكيت. ملأت الدموع عينى، وأنا أدخل حجرة النوم، وراوغتنى ستائر ثقيلة وأنا أبحث عن باب الخروج. سمعتها تسألنى عن رأيى. ولم أكن أريد أن أتكلم أو أراها. سألت، أيضا: ألا تستريح قليلا؟. وأخذت تدعونى إليها. وكنت ـــ ضائقا ـ قد بدأت أزيح طبقات من الستائر بحثا عن باب يأخذنى بعيدا عنها. كانت الستائر تتثاقل، وكانت ألوانها الصريحة تتوالى فى قبح، والباب لايظهر لى، حتى أننى صرت فى سجن من الستائر المخادعة، لاتتمزق ولاتنتهى، بل أخذت ـ أخيرا ـــ تزحف من الجهات الأربع، تطاردنى ـ فى تؤدة ـ إلى مركز مستطيل، يشغله سرير معدنى مرتفع يشبه الضريح.

■ ١ ■

كنت أعلم أنى أواجـه مصيرى بكل ضراوته وعنفـه ، وأعلم أيضـا اننى مـدفـوع إلى تلك المواجهـة دفعـا لاأستطيع منه فكاكا قدرى أنا وحدى.

كانت السـاعة الثانية ظهرا والميـدان مكتظ، والموعد كما تلقيتـه دون أى تفسير «عند تـوهج الزحـام وذروة الصخب» ، وبينما أتجول على الطـوار اقترب منى شخص يرتـدى زيا فرعونيا.. لاأعلم من أين جـاء ؟ كأنما انشقت عنه الأرض لتو اللحظة.. وبقدر ماأخذتنى غرابة ملبسه .. شدنى إليه بوجهه الهادىء.

● الموعد قد تأجل

— لماذا ؟

● لن يستطيع الحضور وعليك ملاقاته فى سكنه الخاص

— لكن هذا ليس بعدل

● لاتنس العدل هو مبتغانا الأساسى

وهو يولى ظهره ناحيتى .. مستقبلا هدير العربات والمارة :

ـ فلتكن متأهبا .

■ ٢ ■

«أخبرنى أبى أننى أتدرج من أسرة فـاطمية وأن أحد أجـدادى ك
واليا فى الباب العـالى » تذكرت هذا وأنا أدق بقـدمى ذلك البناء الع

المظهر.. المعبق بـرائحة مسك عتيق فلتكن تلك المقـابلة حدا لعـذاباتى القديمة والجديدة ، وبمجرد أن دنوت من نهاية الردهة التى انفسحت لحديقة ضخمة.

تـدانى إلى سمعى أنغام عـزف ناى قـديم فجذبنى حنين غـامض وتوق للأيـام الغارقة فى الظلام .. ونشوة أفقت منهـا على رجل يرتدى جبة وقفطانا وعمامة بيضاء يخبرنى بأن الموعد قد تغير.

● أظن المزاح قد فاق الحد.

— لابد التأنى إن اردت الخلاص.

● لن أتركه.

— لاتخف هو أيضا لن يتركك.

كيف أخاف وأنا أول من بحثت عنه — فى نسل العائلة ـ قبل أن يبدأ هو فى البحث عنى .

■ ٣ ■

أوصـافه فى مخيلتى كما تلقيتهـا عن أبى الذى تلقـاها بـدوره عن جده وان لم يره أحد منهم.

ملامح حادة .. جبهة عريضة.. أنف مدبب .. وشعر داكن السواد ـ احترس فهو بـارع فى التنكر ، وتلك إحدى حيلـه للايقاع بغـريمه أعلم ياأبتاه أن الأمر ليس بـالشىء الهين ، ولكنى أخذت العهد أن أثأر لكل الأجداد وأن يسلم نسل العـائلة من هـذا الوغد الاثيم .. لكنـه يراوغنى وتلك بلاشك اولى بوادر النجاح.

«هل تظن إنك قادر على النيل منه رغم تاريخه الطويل».

لاتنس .. أطفـالنـا سيقـدر لهم مـن الحيـاة الكـريمـة مـالم يتح لأجدادهم.

ابتسمت لى فى شحـوب وهـى تـرمق صـور الأجـداد المتـوسـدة

الجدران فربت على وجنتيهـا فى حنو وضممتها إلى صــدرى وأنا أرقب من نافذة الغرفة .. انعقاد السحاب وتكاثفه.

■ ٤ ■

أطأ بقـدمى باب الفتــوح.. يلطم وجهى عبق زمان سر مـدى يترنح على البوابـة القديمــة.. أعبرها ومن حــولى تتقافز أنسمـة فجر جـديد أسعى للقــائه ، وجدتنى عنــد المكــان المقصود كما تلقيت الـرسالـة ، شهقت بعمق وزفرت طاردا كل مخاوفى.

وتجلت لى الحيـاة جديرة بــأن نصنطلى فى عذابــاتها .. وانفـرجت أمامى عوالم لم أكن أدرى روعتها من قبل.

رأيتــه مقبــلا من بعيـد.. يتلحف الظــلام.. ارتعـدت مفـاصلى . لم أصــدق أنى أول من يــراه رأى العين مــن نسل العــائلــة المنحـدر من عصــور سحيقـة ، وتجلت لى فى نفس اللحظـــة كل عـذابــات الماضى فبدوت أكثــر ثباتــا.. بدت مـلامحه تحت ظلال القمـر المنعكس خلف النباتات تتضح شيئا فشيئــا .. رقبت نافذة تفتح فى بيت قديم.. وطفل يتبــول بجانب حــائط مرســوم عليــه بالطبــاشير خروف بــلا رأس.. وتقدمت نحوه.

■ ٥ ■

قـديما كان جـدى يقول لى : «العتمـة غـول مابيشفش حـد» كنت أخشـى العتمة ، وأخشـى أن ألعب مع أقرانى أربط عصــابة فوق عينى وأظل أدور وأدور أفتش عنهم وهم يتقافزون من حــولى هاربون كنت ساعتهــا أمد يدى لألقف أحـدا منهم فلايجاوبنى غير الخواء وأحيــانا أرتطم بشخص. أو أتعثــر فى حجر ، وحين أفلــح فى الامساك بأحــدهم وأحكمت عليـه قبضتى كى لايفر أخلع العصــابة عن عينى فأجـدنى ممسكا بكلب ضخم أجرب :

■ ٦ ■

أستقبل وحدى كل الشياطين وتجابهنى الخيالات ، تنازعنى ذكرى أبى ، ويهزنى لقاء الرجل .. وعبق حكمته وصوفية حديثه فالرجل أوصافه مغايرة تماما لوصف أبى ، بل أخبرنى بأن أبى هو الذى ظل يتعقبه فلم يجعل أمامه خيار. ولايمكن أن يكون مثل هذا الرجل قاتل أو لص :

● ياولدى إياك وان يخدعك بتقواه وورعه المصطنع.

فقدرته على التلون هى ماجعلته يحيا كل هذا العمر.

— لاأريد أن أصيبك بسوء إلا إذا اخترت أنت.

يدق الليل بعصاته أرضية الغرفة . فأرى أبى يتيه عاريا فى أرض خاوية .. مترامية .. خالية من كل أثر وأرانى أرقبه من بعيد من قمة تل وهو يلهث ، ولهاثه كأنما يضخ من قلبى ويسرى كالخدر فى عروقى ، وأرانى أتجرد من ثيابى أنا الآخر وأهبط التل وأظل ألهث معه .. حتى يغمرنا الضباب.

■ ٧ ■

أنسيت وصية أبيك أيها الجاحد ؟

لم أعد أدرى عند من ثأرى وعند من ثأر أبى ؟؟

● ثأرك عند الرجل .. أتخشاه ؟

— فتخبرنى أنت ياعمى عن الحقيقة ، فقد عشت العمر أتوهم ملاقاته وعندما رأيته أدركت أننى أضعت العمر هباء.

.. فلماذا خدعنى أبى ؟

● طالما بدأت تسأل فلن تؤدى ماعليك.

— لماذا تريد تعذيبى !

● إنما أريد لك ولأباك الخلاص.. ولكن لاجدوى . فقد نال الرجل منك.

ماذا فى الليل يهزنى إلى هـذا الحد!! ارتطم بالســواد أينما توجهت ، طفلى الصغير يسألنى وهو ينظر للسماء «فين يـابابا بيروح الليل بعد مايمشى»؟

■ ٨ ■

لابـد أن أؤمن بجرم الـرجل كى أنــال منه ، إذا تـوكدت فلن أبـالى بالعواقب وسأنفذ المطلوب مهما كان.

لكن أبى طـالما راوغنى كلما استنطقتـه عن سبب العداء إنما كـان يكتفى بايـداع بذرة الغل فى صـدرى طوال مـراحل عمرى حتى كبرت الشـجرة وقبل أن تثمر وافـانى الرجل بهيبته الوقـورة فقطع الشجرة من الجذر وتــركنى اتخبط كأنما اقتلعت مـن أصـولى وخــرجت عن القضبـان التى عشت العمر أتـدرب على السير عليها ، لأجـدنى أجهل طريق السير وطريقته !!

يا أبى إن كنت ضحية الرجل فأنا بربك ضحية من ؟

لو أستطيع انطاق الموتى ؟؟

■ ٩ ■

● فوق أرض طباشـيرية تداهم الجنـود أبواب القلعة وتسقط آخر حصون الدولة الأيوبية ، وتجتــز النساء سبايا وتداهم العسس بيوت الآمنين فيسلبـوا الـــدفء من المخـادع والأمن مـن النفـوس ، وتـهرع الجمال إلى أعالى التلال وتلقى بنفسـها منتحرة ، ويغيض الماء فى الآبار ويـرتع الليل بلا راد فى الطـرقـات ويبكى الـرجال.. وتترهبن النســاء وتلطم الدهشة وجوه الأطفال فيشيخون قبل الآوان.

وأرى أبى طفـلا فـوق كتف جدى يسألـه عقب انصرافـه من دار الوالى :

● أسمع الجمع يتكلمـــون عمن يبيعـــون أنفسهم للـــوالى.. فما الخيانة ياأبتا ؟

يرد جدى وهو يهرول مسرعا :

● الخيانة ياولدى أن يظهر الناس عكس مايبطنون.

وأبصر الرجل يهبط من فوق جواده يقـف أمام جدى وأبى متأملا ثم يشهر سيفه.

■ ١٠ ■

اخترق أكـوام الناس والعـربـات وزركشة الـوجـوه المتداعيـة من حـولى، أمثل فى المقهى المواجـه للقلعة حيث يقضى صـديق عمـر أبى أوقاته المتلاشية فى لعب النرد :

● أهلا بالحبيب ابن الحبيب.

— فاض بى الكيل فلم أجد غيرك.

● كنت أعلم بأنك ستأتى.. فلم ينج أحد.

— لاأحد يريد أنبائى بالحقيقة !

يتهـافت إلى سمعى تقاسيـم قانـون غير بعيـدة ، فتجابـه روحى أنسام فضفاضة وأنا أهم بمغـادرة المقهى تعجبت فرغم مرور الزمن مازال الليل يجىء تماما كما يجىء النهار.

■ ١١ ■

أمضـى أنا وطفلى وسط الميدان المزدان بـالأضواء والصخب وسط الأضـواء المنهمـرة من نوافـذ البنـايـات المتحلقة الميـدان الـواسـع .. والهواء الـراكـد يقـاوم بإصرار الهواء المنعش القـادم من سـحـابـات بيضـاء.

وبينما الميـدان نـافـورة من الضـــوء تسيل على وجـــوه النـاس

والأسفلت والطوار. يطلب منى طفلى الصغير أن أحمله فوق كتفى لأنه تعب ، فأحمله وأخترق الميدان فى ثبات واصرار أطارد سحابة شفافة تومىء لى منوشة عن عالم ذهبى الملامح ناعم الملمس .. رقيق الحواشى.. ويتراءى لى الليل مناصفة مع النهار بلاأدنى تداخل.

يهبط الرجل من عربته الأنيقة الواسعة .. يقف أمامى يتأملنى أنا وطفلى .. و ..

«الجسد الوحيد سلة فارغة تنتظر دوما من يملؤها».

ها أنا الآن تتجسد صورتى تماما.

فى المساء أغلق فمى.. أترك أعضائى الساخنة تتبعثر — أسمح لها أن تتقافز حولى حتى لا أشعر جيدا بالوحدة.

فى اليوم التالى أبدأ ألملم جسدى — يجب أن أعود فى الصباح كائنا غيريا أو متجانسا.. أخرج من حجرتى الباردة، أكاد أطير فى الهواء أتحاشى دوما أن أسير فى الزحام أو أن يحتك جسدى بجسد آخر، فأنا لا أعرف كيف تلتصق الأشياء ببعضها.

هل.. أبدو غبية بعض الشىء ؟

قل لى كيف تشعر أنت حينما تراقب ثمرة ناضجة ذات حواف حمراء قانية وهى تتهاوى على الأرض الجافة ؟

أشعر أنا بالحزن بالوحدة.. أندفع فى بكاء حار.. فأقذف بنفسى أنا الأخرى كى أرقد إلى جوارها.. هكذا منتهى الحماقة.

أنا — حقيقة — لا أدرى كيف تتجاور الأشياء.

تتلامس.

تلتصق.

ثم تتداخل فى النهاية وينبعث منها ذاك الفحيح الحار.

كيف يلتصق جسدان ؟

لا أدرى إن كان يمكن لجسدى أن يلتصق بجسد آخر .

لا أدرى لماذا أراوغ جسدى هكذا دوما «مثل أنثى» فأجدنى أتقافز عبر الطريق مثل قردة صغيرة تخيف الناس بصخبها فيبعدون أجسادهم عنها فى الحافلة حيث أرى الناس تتشابك أعضاؤهم مثل ضفائر أنثى مدربه أقف حائرة تماما أحملق وقد تقوس جسدى للخلف، أحاول أن أميز نهاية كل جسد وآخر فلا أقدر.. فألعق شفتى فى بطء وأنا أبتعد بجسدى .

أصنع حوله دائرة هوائية باردة حتى يبقى جسدى وحيدا .

جسد وحيد .

لايلتصق بجسد آخر .

جسد ساكن .

لاتنبعث منه أية رائحة .

حجارة مبعثرة مهملة .

بيت يتهاوى .

بقايا طيور عالقة بزجاج نافذتى الشرقية .

أصابع جنين يتشكل فى هدوء .

نغمات شاذة .

صوت مثل مواء يعلو بداخلى فجأة.

صوتى يخفت تدريجيا كل صباح ـ هكذا دوما صعود وهبوط دون توقف ـ فى صباح اليوم التالى سأتلاشى .

أتفتت من تلقاء نفسى مثل سحابة قطنية .

ذات مرة رأيت نفسى أمد ذراعى ثم أقفز فوق سحابة عالية

عالية هى بالطبع

رأيت كيف تتفتت فى هـدوء.. تنفلت تمامـا ثم تعـود تتـلاصـق من جديد وتشكل قطنا كثيرا كثيرا .

إنه الله يشكلها وحده كما يشاء كل صباح .

فى تلك الليلة كان لها وجه ثعبانى.

يتسـع ويضيق .

وينسـحب .

يصبح له فم كبير مفتوح عن آخره.

مثل فم عزرائيل.

عزرائيل لا يخيفنى

«هل يخيفنى حقا؟» .

أنا لا أعرفه تماما .

من هو؟

من يكون هذا الـ.

اللص .

أتخيل أن يكون له أصابع غليظة مقوسة.. خمسة وثمانون أصبعا تتجـاور.. أو ربما تتـلاصق كى تحكم قبضتهـا على.. تـرى هل سيمسكنى عـزرائيل من رقبتـى أم سيغـريـه شعـرى الهائج فيلملم بأصابعه الكثيرة هذه شعرى المتناثر دوما .

ويجرجرنى وراءه إلى .

إلى أين .

هل أموت أبدا ؟

أمـوت وحدى أيضـا؟ يتهـاوى جسـدى هكذا فى صمت لا يقطعـه سوى صوت تداخل حبات التراب اللزجة بجسدى البارد .

عزرائيل.. أرجوك.. كن لطيفا معى .

عندما تأتى.. لا أعلم متى ستأتى .

ولكن قد تأتى فى أى وقت ـ أعلم ذلك ـ .

أطرق الباب أولاً إذن .

سأكون بمفردى أيضا .

لكن.. أرجو أن لا تأتى وأنا.. استحم .

عندما استحم أكون ثقيلة تماما مثل قطعة اسفنج جافة تناولت فجأة قدحا من الماء.

لن تقدر إذن أن تحملنى.. لن يعجبك جسدى وهو ثقيل هكذا .

جسد وحيد ينسكب فوقه الماء البارد .

يسقط بتثاقل فوقه .

يدغدغه .

فيغيب عن الوعى تماما .

يغرقنى الماء .

يعتلينى تماما .

فيتناثر جسدى مثل جزر خضراء صغيرة .

ريثما أهرب أنا بعيدا .

أنفلت تماما.

أعود وحدى إلى هناك .

هناك حيث الصحراوات الشاسعة والجبال البيضاء الصغيرة.. هل تذكرها جيدا ؟

أعتليها فى رشاقة حتى أصل إلى قمتها .

أقف فى ذهول.. أنا فقط ولا أحد هناك.. قريبة من السماء إلى هذا الحد..

مثل نقطة ماء بيضاء تفتح فمها الصغير تندهش تماما.

أتحسس السماء .

تتسلل أصابعى الصغيرة، أنزع قشرتها اللبنية الطازجة فينسكب فى كفى سائل أزرق لزج شقى .

يا الله لم أر مثل هذه الزرقة من قبل .

أحب أن أفعل ذلك.. أن ينسكب هكـذا فى داخلى فأشعر أننى ربما لست وحيدة تماما.

أضحك لأننى.. أنا وحدى التى تفعل ذلك دوما .

أداعبه.. أدحرجه بين يدى.. أصنع منه كرة.. كرة مائية تماما أدحرجها فوق جسدى العارى ثانية .

كيف تكون كثيرة وجسدى وحيد دوما هكذا ؟

أن يكون للمرء ساقان وذراعان .

عشرون أصبعا.. ثديين.

وأنف واحد.

أنف واحد فقط يتبع رائحة كل هذا الكون .

أنا لا أشعر بأنفى عادة سوى فى الشتاء .

فى الشتاء يكون لى أنف باردة تماما.

أنفى صغير الحجم .

لا يتحمل برد الشتاء.. أخاف أن يموت أو يسقط .

لذا أنزعه دوما .

وأخبئه فى قماشة حمراء صوفية كى لا يبرد .

فيجف .

وينكسر .

حينما يختلف الأمر تماما أخرج أنفى ثانية .

أعيده إلى وجهى المستدير .

أختار له موضعا جديدا أحركه يمينا ويسارا .

أمسك بالمرآة.. أجرب .

فوق حاجبى الأيمن ؟

أسفل الذقن؟.. هل يتحتم علىّ أن أضعه فوق وجهى؟.. (شىء يبعث على الملل) .

فى النهاية أضعه فوق كفى الأيمن حتى أترك رائحة الأمكنة تقودنى إليها كفى الأيمن بمثابة جناح صغير يقودنى دائما إلى من أحب .

من أحب ؟

الخرائط وخطوطها الزرقاء والحمراء وهى تتلوى وتتزاوج فى حنو.

الأرصفة اللامعة .

الطرق الملتوية .

الدكاكين الصغيرة.. الحقائب.. الأحذية .

الأقبية .

رائحة السجاجيد العتيقة .

الركض ـــ حينما يركض جسدى وحيدا ولا يتبعه أحد ـــ الأسوار العالية الدرج الأبيض العتيق .

باب العمود .

أرغفة الشاورما الساخنة التى تناولناها معا وكانت عيناك تشتعلان كثيرا وهما تحاولان مناوشة جسدى .

الدهشة .

الانجذاب .

سروالى الأبيض وحذائى البنى .

روحى التى غادرتنى ولازالت تعبث هناك .

الهروب من الذات ليلا.

أجوب الأمكنة ـ أجوبها دوما وشعرى المشعث يحاول أن ينفلت منى ويقترب من رؤوس سوداء بعيدة.. فألمه بسرعة وأبتعد خائفة .

صخبى الخاص .

ضحكاتى .

عيناى العسليتان وهما تتقافزان فى وجهى وتضحكان فى خبث.. سائر جسدى العنكبوتى.

نومى واشتهائى .

وأحلامى الصغيرة .

أحلام صغيرة للغاية .

ولكنها مفزغة تماما .

عادة ما أغلق عينى وأسير فى رداء بنى طويل .

أحلم .

فتتكسر أسنانى.. تتكسر تماما حتى تستحيل إلى دقيق أبيض ألوكه فى صمت وأنا أرنو بعيدا.

فى الليل .

تتساقط أسنانى كثيرا .

تتهاوى فى صمت داخل جسدى الأجوف .

وتوجعنى.

فأستيقظ وقد فرغ فمى تماما من الداخل .

كيف سيبدو فمى عندما تتساقط جميع أسنانى ؟

تماما مثل مرمى كرة القدم .

أو.. جراج مهجور مهمل .

مساحة خالية.

مظلمة .

ساكنة .

لاينبعث منها سوى صوت ارتطام لسانى الكسول بسقف الحجرة حجرة عرجاء تماما .

ترى كيف أكون عندما تقودنى قدماى إلى هناك ؟

هناك.. حجرة صغيرة مظلمة معلقة بين السماء والأرض .

امرأة وحيدة تماما.

امرأة نفضت عن فراشها البنى كل بقايا الرجال .

وبقى جسدها .

هكذا باردا .

هكذا وحيدا .

يعتلى الفراش .

ينثر ثيابه فى الهواء .

يتعرى تماما .

ويرقص فوقه فى زهو .

أوه.. عزرائيل هل أتيت ثانية ؟!

أتود أن تأخذنى إلى هناك.. صحيح أن جسدى يتآكل بسرعة لكننى لا أرغب أن أرحل الآن. سأحاول مرة أخرى أن يبدو جسدى فى شكل آخر.. امرأة ناضجة تضع المساحيق ليلا ، تتعرى جيدا وترقص..

وتشير من بعد بطرف أصبعها .

لماذا تبدو منزعجا.. هل جربت الرقص أبدا ؟

الآن أحب أن أراقص جسدى العارى.. أرقبنى إذن وأنا أرقص أتسلل.. أرقص قرب النافذة حتى أنفذ من خلالها فلا يقدر أن يتبعنى هذا الـ .

هذا الـ. سيشعل سيجارته مرة أخرى .

أخاف أن أراها تحترق هكذا .

أن يكون لها جسد أبيض رشيق وفى نهايته قبعة بنية أنيقة .

ثم يحترق فى النهاية .

أعرف هذه اللعبة .

تشعلها فى البداية.. تقبلها بشفتيك الباردتين ثم تتركها هكذا ترقد بمفردها وتموت ريثما تنشغل أنت بإشعال امرأة أخرى .

امرأة وحيدة تماما.

خائفة تماما.

أنا.

بين لحمى النيء.

وجسدى الحار .

أقف حائرة.

مثل مروحة معدنية .

تروح وتجىء.. ولا تمل .

تجىء وتروح .

ثم .. تنطفىء .

متى تنطفىء الحرائق .

كيف تشتعل ؟.

أحدهم أشعل حريقا فى مكان ما بجسدى ومضى يعبث بمكعباته الورقية .

يصنع طائرة .

يتركها تحلق بعيدا بعيدا .

ثم تسقط فجأة على الأرض .

وتتناثر قطعا صغيرة .

جناحا عصفور .

عصفور ضئيل لا يجيد الرؤية تماما فيتهاوى وحيدا.. ويتناثر هكذا سريعا «الوحدة تملى نموذجا خاصا للجنون» .

أخرج من حجرتى الساذجة أغلق الباب جيدا ثم أجلس عند قدميه أعبث بأنفى الصغير.. أفكر .

«هل يلتصق جسدانا أبدا ؟» .

للجسد النىء مذاق، مثل امرأة عجوز يحتفظ وجهها الورقى المجعد بلونه الوردى .

لجسدى .

مذاق .

آخر .

لن تعرفه الآن تماما .

لم تعرفنى حتى الآن تماما.

يمكنك أن تعد من واحد إلى واحد آخر حتى تصل أخيرا إلىّ .

هل تعرف كيف تسلك الطريق لامرأة وحيدة لا تمتلك مهارة التزاحم مع الآخرين.. لها جسد فزع .

أرنب برى صغير ترتعد قدماه بشدة .

هل تعرف كيف تدخل امرأة ساكنة تماما.

بيت فارغ تماما.

يعلو سطحه ثلوج زرقاء ورمادية .

هل تخشى اللون الرمادى ؟

أنا لا أعرف ان كان يبعث على الملل، لكننى أعرف أنه لون وحيد يسير بمفرده دائما فى لحظة ما تكون السماء هى الأخرى رمادية تماما.

با لمصادفة أكون أنا هناك .

هناك حيث الإله يقف وحيدا يراقب كل شىء .

« هو لا يشعر بالطبع بالوحدة مثلى .

هل يشعر حقا بالوحدة ؟» .

ألهذا يطىء الأرض بقدميه ليلا، يبسط يده الكبيرة ليداعب رؤوسنا.. كم هى طيبة حقا يد الله هذه.. أشعر بها دوما عندما يعتلينى السأم تماما فيرتجف جسدى بشدة. تعتلينى يد الإله فيهدأ جسدى قليلا وينكمش، أجد نفسى أعتلى أرجوحة، أجلس أنا فى جانب وأضع الكون بأكمله فى الجانب الآخر .

الكون ساذج ثقيل بطبيعة الحال، لذا أجد نفسى أحلق فى الهواء دوما.. أتسلل للسماء الأولى من هذا البعد اللانهائى أنظر فزعة للأرض المزدحمة برؤوس سوداء صغيرة .

أخبىء جسدى بين ذراعى .

أنظر إلى جسدى ثانية جسدى الوحيد المرتجف .

أركض فى النهاية .

وتهتز يداى الباردتان فى عنف .

أهبط إلى الأرض ثانية .

أركض.. أصنع حوالى ذات الدوائر البيضاء الباردة.. فى النهاي وعندما يبدو الأمر ساذجا إلى هذا الحد قد أشعر با لملل فأتوقف ألهث.. أتلفت حولى..لا أحد يتبعنى .

أبعثر شعرى الهائج.. لا أحد ثانية .

سوى أرصفة الشتاء .

سوى.. أنا .جسد بارد فارغ تماما .

مع تسلل الضوء وانتشاره ليزيل ظلام الليل الحالك فى كل دورة يـومـيـة وقبل أن يضرب شعـاع الشمس بأذرعه الطويلـة فى كل مكان ليؤكد بدايـة صبح جديد ، أسمع صرير العجلات الخشبية المطعمة بالحديـد آتية من قـريب . تظهر الحمير الثـلاثة العجفـاء أمام البـاب الواسع للبيت الكبير ، يتوقفون فى مكانهم المعتاد من كل يوم دون توجيـه ممن يقودهم . الحمار الأساسى فيهم مـربـوط بين عـارضتين مـن الخشب يسميـان (العـريش) ، الحمار الأعجف الثانـى أكبر الثلاثة سنـا ومربـوط خارج العريـش من جهة اليمين، الأعجف الثالث صغير السن ومكـانه شمال الحمار الأساسى خارج العريش أيضـا. يتصل العريش الخشبى بالعـربة القذرة التى لا شكل لها ولا لـون، حقيقى أنها مصنـوعـة من الخشب على هيئـة صنـدوق عميق مـربع الحجم لكن القـذارة تسببت بمـرور الأيـام فى طمس معـالم هيكلهـا الخشبى. كما أن الأثقال التى تحملهـا كل يـوم بدلت من شكل استواء صندوقها وجعلته دائم الانبعاج.

يقفـز «البشوتى» من مكـانـه خلف الحمير ملتقطا الـزنبيل الكبير ليجعلـه وراء ظهـره، يترك الصبى الصغير ليبقى فى انتظـاره ممسكـا بمقود الحمير العجفاء، يدخل البشوتى

من البـاب الواسـع تجاه غرفتى الضيقـة القـابعة تحت درجـات السلم، يسمعنى تحيـة الصباح وهو فى طـريقه وأرد التحيـة بأحسن منها من مكمنى، يبدأ صعود الدرجات حتى آخر طابق فى البيت الكبير

المرتفع المتعـدد الأدوار، يفـرغ صفـائح القمامــة من أمـام الشـقق فى زنبيله الكبير بهمة ونشاط، ينزل إلى الطابق التالى ويفعل مثلما فعل فى سابقه مع صفائح القمامة، الشقـة التى لا يجد أمامها قمامتها يتركها ولا ينبه أصحـابها ليخرجوها لـه. الوقت عادة يكـون مبكرا ويخشـى إيقـاظ السكان أو إقـلاق راحتهم، على السكـان أن يتركوا صفـائحهم المملوءة أمـام شققهم من الليلة الســابقة. الأتربـة ومخلفات الهدم أو تكسير الحوائط لا تعتبر من أنـواع القمامة، يتركهـا البشوتى مكـانها حتى وإن كانت مـوضوعة داخل الصفـائح أمام الشقق فلا يفـرغها. مبـادىء سار عليهـا فى عملـه ولا يحيد عنهـا إلا باتفـاقـات خاصـة ومسبقة.

بعد صعـود البشوتى أتـرك مكان نـومى الضيق حامـلا صفيحة مهمـلاتى، أتحرك ناحيـة بـاب البيت مقتربـا من العربـة ذات الحمير الثلاثـة، أفرغ مهملاتى بنفسى أو أعطيها لصبى البشـوتى ليلقيها فى صندوق العربة، أقف فى مـدخل البيت أتنسم هواء الصباح وأستنشقه فى صدرى. أتأمل الرائحين والغادين الذين يبدأون يومهم فى الساعات المبكرة. لفت نظـرى ـ عديـد من المرات ـ تخصيص ثـلاثة حمير لجر العربـة الصغيرة. لاحظت ذلك فى معظم عربات جمع القمامة التـابعة للقطاع الخاص أمثال البشـوتى الزبال.

بعض العـربات معلق بها حماران على الأقل ويندر وجـود عربـة بحمار واحد. تصميم صناعتها ليجـرها حمار بمفرده وليس حمارين أو ثـلاثة، هـذا واضح من المسافـة التى يقف فيها الحمار الأســاسى داخل (العـريش)، فماذا يفعل الحماران الآخـران المربوطـان خـارج عريش العربة؟ هل المقصود منهما تسلية الحمار الأساسى والتسرية عنه فى رحلته؟ أم أن وفرة الحمير ورخص ثمنا هو السبب فى استعمال أكثر من واحد؟ وربما كانت الحالة الصحية هى المعول فى استخدامهم

بصورة جماعية؟ فصحة الحمير الثلاثة العجفاء مجتمعة تكاد تعادل صحة حمار واحد قوى البنيان فى كامل عافيته، كما أن الحالة النفسية للحمير لها تأثير لا يمكن إنكاره على صحتهم وحالتهم العضوية. فشعور الحمار بالعمل فى عربة زبالة يختلف عن شعوره إذا عمل فى حقل أو فى سيرك. تحليل آخر هدانى إليه تفكيرى بخصوص الإسراف فى استعمال الحمير. إذا كانت هناك صلة زواج أو قرابة بين الحمير التى تجر العربة أو حتى مجرد خطوبة، هنا يكون القصد واضحا بالحفاظ على وحدة الأسرة الحميرية وعدم تشتيت أفرادها، لكن هل كل الحمير التى تجر عربات.الزبالة بينها صلة نسب أسرى أو حب أو خطوبة؟.

هذا ما جعلنى أسأل البشوتى عن سر جر عربته بثلاثة حمير. أجابنى وأقنعنى بأن فائدتهم مؤجلة لكنها آتية لا ريب فيها فى كل يوم. فعند المطالع والاقتراب من المزبلة الرئيسية لتفريغ محتويات العربة تظهر الحاجة الملحة للحمير. العربة تكون فى نهاية رحلتها مكدسة بالزبالة وحملها ثقيل يحتاج إلى تعاون. الحمير الثلاثة يشد بعضهم أزر بعض لسحب العربة والوصل بها إلى مقلب التفريغ. كذلك عند العودة والعربة فارغة من حمولتها تتدحرج بقوة من المنحدر السابق صعوده. حمار واحد بمفرده لا يستطيع السيطرة على اندفاعها أثناء النزول. قد تنقلب العربة أو تقع على الحمار فيصاب بما لا يحمد عقباه. تعاون الحمير الثلاثة يضمن سلامتهم فى صعود المطالع ونزول المنحدرات. تذكرت ساعتها العربات الحكومية التى تقوم بذات العمل وتجمع القمامة من الشوارع. فرغم أن عربة الزبالة الحكومية يبلغ حجمها عدة أضعاف عربة البشوتى. ورغم أنها مصنوعة من الحديد وذات عجلات كبيرة القطر. ومع ذلك يجرها بغل واحد يبدو عليه دائما الحزن والاكتئاب. ومعه الحق فى حزنه

واكتئابه فهو يشعر بالظلم الفادح الذى يعيشه كموظف حكومى.

وقفتى فى مكانى لا تطول دقائق بالهناء واستنشاق الهواء العليل، لابد وأن تزكم أنفى رائحة كريهة تتسرب مع الأثير إلى خياشيمى، أفيق من سرحتى منتبها لوجود عربة الزبالة الرابضة أمامى، أشفق على هؤلاء الذين يعملون عليها وتعد مصدر رزقهم الوحيد والدائم، انهم يتشممون على الدوام رائحة العفن من مخلفات الأطعمة ومختلف الأشياء. لاشك أنهم اعتادوا على عملهم ولا يشعرون بما يأنف منه ويتأذى الآخرون. أصبحت الروائح الكريهة المبغضة ــ مهما كانت درجتها ــ لا تسد أنوفهم. اكتسبت خياشيمهم مناعة طبيعية فلا تتأثر بتلك الروائح. بل على العكس تماما ربما تضايقهم الروائح العطرة وتسبب لهم الأذى. فقد تلتهب جيوبهم الأنفية أو تصاب بحساسية إذا دخلها هواء معبق عطر. اعتيادهم على قضاء معظم أوقاتهم فى المزبلة العمومية أفقدهم حاسة الشم. جعلها طول الوقت تتخذ طبيعة خاصة تناقض الوضع الطبيعى.

لقد طوروا أنفسهم ليعيشوا بأربع حواس دون الخلق أجمعين. بل يخيل لى أن زيارتهم للحدائق وشم الزهور والورود قد يصيبهم بالإعياء والإغماء، وأحمد الله فى سرى أنه ــ سبحانه ــ لم يكتب لى الاشتغال بمثل عملهم. فعملى كحارس للبيت يتسم بالنظافة التامة وإن كان الكثيرون يحتقرونه. فما بالهم بنظرتهم للعمل الذى يقوم به أمثال البشوتى الزبال؟

حدث ذلك فى بدايات شهر جديد عندما حضر البشوتى لتحصيل أجره الشهرى. اعتاد على أن يأتى وحده فى ضحى يوم من أوائل الشهر بدون العربة وبغير الزنبيل. يطرق أبواب الشقق التى أفرغ من أمامها صفائح الزبالة طوال الشهر الفائت. بعد طرقه للباب يتراجع بعيدا عدة أمتار حتى لا يجرح الموجود داخلها بنظراته. بعد

فتح الباب يعلن عن نفســه بصفته (الـزبال) ليعطيه أصحـاب الشقة الأجر الشـهرى المعلوم. أذكر جيدا ذلـك اليوم فى بدايات أحد الشـهور القريبـة الماضية. جـاء البشوتى وقد قـرر رفع أجره الشـهـرى الذى يحصل عليه من السكان. الـزيادة التى طلبها لا تتعدى قـروشا قليلة بالنسبـة لما يقدمــه من خدمـات. كان يحصل على جنيه واحـد من كل شقة عن عملـه طوال أيام الشـهر. فى ذلك اليـوم طلب خمسة وعشرين قـرشا زيـادة علي الجنيه السـابق الاتفـاق عليه. بـرر طلبه للسكـان بـارتفـاع الأسعار فى جميع السلع المتـداولـة بـالأسواق. هـو أيضـا يشترى السلع التى يحتاجهـا لمعيشته بـالأسعار المرتفعـة مثل باقى النـاس. أعطاه بعض السكـان الزيـادة المطلوبـة فى صمت وأدب دون محاورة أو منـاقشـة. سخر البعـض الآخر من التبريـر الـذى أبـداه للحصـول على الـزيادة وجـادلـوه طـويـلا. فى رأيهم أن احتياجـاتـه محدودة للغاية ويمكن تدبيرها بأقل التكاليف.

كادت إحدى السيـدات أن تضرب له المثل باستغنائه عـن صابون الغسيل وربما صابـون الاستحمام أيضا. أشارت على مـلابسه وهى تحدثه قاصدة أنه فى غنى عن استعمال الصـابون. ملابس البشوتى قديمة رثة مجهولـة اللون يستحيل معها إجراء محاولات التنظيف. لم يعرف الصابون طريقه إلى ملابسـه ـ بقصد الغسيل ـ منذ شـهور غير معروفـة العدد. كذلك مـا فائدة الاستحمام للبشوتى إذا كـان جسده سيتسخ بمجرد أن يبدأ العمل فى اليـوم التالى. الأقدام التى يسير عليها لم يكن لها شرف ارتداء حـذاء جديد الصنـاعة فى يـوم من الأيام. يتم استبدال الحذاء القديم بآخر قديم لكنه متماسك يمكن السير فيه لعدة أسـابيع. يحدث ذلك عنـد العثـور على حـذاء منـاسب داخل إحـدى صفائح القمامة التى يفرغها. يقـوم البشوتى بارتدائه فى الحال ويلقى مكـانه الثـانى الذى يستّر بـه قدميـه. يظل يستخدم الحذاء الجديـد

القديم إلى أن يتفسخ أو يجد ما يحل مكانه فى قـدميه. لا يفكر يوما فى تنظيفـه أو العنايـة به فطبيعـة عمله تحول دون ذلك. تتراكم طبقـات الأوساخ على جلد الحذاء فتفقده اللون والمعالم يوما بعد يوم. ويصبح هناك تنـاسق بين الحذاء وبين باقى ما يـرتديه البشـوتى على جسده وعلى رأسـه.

أمـام شقـة أخرى تجادل مع البشـوتى مـوظف حكـومى سـابق يعيش أيامه الحالية با لمعاش. وجـدها فرصة للتنفيس عن نفسه وقدم أسبابا تقـابل تبرير البشوتى لطلب الزيادة بل أقـوى فى الدليل. حجة الموظف السـابق أن مـرتب معـاشـه الشهـرى ثـابت منـذ سنـوات ولا تزيده الحكومة مليما واحـدا. رغم أن أولاده لا يتوقفون عن النمو ويتنقلون فى سنوات دراساتهم ومطالبهم فى ازدياد مستمر. الأسعار المرتفعة لا تـرحمه وجاء إليه البشـوتى بمطلبه ليزيـد الطين بلة. رثى البشـوتى لحال الموظف وكـان يرحل عنـه ويترك لـه أجره الشهـرى كمساعـدة منه. نـاداه الرجل واختفـى داخل شقته ليحضر لـه النقود التى طلبها منه. جاءت زوجة الموظف تثـرثر بلا حساب محاولة إلغاء قـرار الزيـادة. وضح فى حـديثهـا الحسـد المباشر للعـاملين فى جمع القمامـة من البيوت. بينت للبشـوتى أنها تعـرف أسرار مهنتهم التى لا يعرفهـا الكثيرون كأنها عليمة بخبايـا الأمور. قـالت أنهم يفرزون القمامة المتجمعـة ويصنفونها أنواعـا متجانسة. الـزجاجات الفـارغة وعلب الصفيح وبقايـا ومخلفات البلاستيك وكل شـىء يعاد بيعـه وله ثمن. حتى الأوراق مهما كان نـوعها أو قـذارتها تباع للمصـانع ليعاد طبخهـا وتصنع منهـا علب الكرتـون. جـاء زوجها الموظـف وأمرهـا بالسكوت ونقد البشوتى الأجر الشهرى مع الزيادة التى طلبها.

وعندمـا وصل البشوتى للطـابق الأول من البيت نزولا كـان الكيل قد فاض به وطفح. مجادلة كل سـاكن على حدة أتلفت أعصابه وهدت

من كيانه. طرق باب إحدى شقق الطابق الأول ووقف ينتظر. ساكنة الشقة لها طابع يختلف عن بقية سكان طابقها والطوابق العليا بالبيت. جمالها اللافت للأنظار جعلها تتعالى عند معاملتها للآخرين من بنى البشر. اسمها (دلال) وفى مشيتها تحاول تطبيق اسمها على الخطوات التى تخطوها. متكبرة فى تصرفاتها بين الجيران والجميع يكنون لها كراهية خفية. حتى زوجها (عاصم) لم يسلم من رذالتها وكثيرا ما دب الخلاف والشقاق بينهما. فى نقاشهما يرتفع صوتهما ليصل إلى أسماع كل السكان وإلى السائرين بالشارع، يفضل السكان الاقتصار وعدم التدخل لفض الخلافات التى تنشأ بين الزوجين. يغيب الزوج عاصم عن المنزل باليومين أو الثلاثة فى أوقات تكاد تكون متقاربة. ربما غيابه بسبب هجر زوجته وتأديبها أو لقيامه بعمله الذى أجهله، يترك زوجته وحيدة فى الشقة فلا أبناء لهما منذ تاريخ زواجهما. بعض أقاربهما من الجنسين يترددون على الشقة فى حضور الزوج أو أثناء غيابه. لا أعرف من المترددين من يمت لعاصم وزوجته بصلة القرابة أو مجرد الأصدقاء.

تلبس (دلال) دائما ما يكشف عن جمال جسدها فى حضور القريب والصديق الغريب. متحررة فى سلوكها تظل سهراتها مع زوارها إلى ساعات متأخرة من الليل.

فتحت دلال باب شقتها لتجد البشوتى الزبال واقفا ينتظر حصوله على أجره الشهرى. عندما رأته تراجعت للداخل وأحضرت ورقة واحدة من فئة الجنيه قدمتها إليه، قبل أن يمد يده نبهها إلى الزيادة التى حصل عليها من باقى السكان وطالبها بمثلها. رفضت فى صلافة مبدأ الزيادة وأعلنت عدم الرضوخ لما يطلب. حاول إقناعها كما اقتنع باقى السكان فلم تستجب وأصرت على موقفها. ضاق صدره من الجدال المرتقب فأشاح لها بيده زاهدا فى الزيادة وفى الأجر

الشهرى. اغتاظت منه فبدأت تقرعه بكلمات نابية وألفاظ جارحة متلاحقة. برطم البشوتى بكلام لم تفهمه دلال وهو يولى ظهره لها متجها إلى الشقة المجاورة. دق الباب وسرعان ما فتح له فطالب أصحاب الشقة بأجرته الجديدة. شاهدوا جارتهم وسمعوها وهى ترسل بقايا سبابها للزبال. أحسوا أن السبب هو زيادة الأجر فأعطوا البشوتى ما طلب. اختفت دلال داخل شقتها وصفقت الباب خلفها بصوت مزعج ومثير. تحرك البشوتى ناحية الشقة التالية ليدق بابها ويطلب أجرته.

فى الصباح الباكر لليوم التالى كان البشوتى فى دورته المعتادة يفرغ صفائح القمامة من أمام الشقق. عاصم زوج دلال يترصد خلف باب شقته متصنتا ينتظر حضور الزبال للطابق الأول. وصل البشوتى وأنزل الزنبيل الكبير من خلف ظهره ليواصل عمله. خرج عاصم من شقته مزمجرا متوعدا بالويل والثبور وفظائع الأمور. فوجىء الزبال بأيدى عاصم تنهال عليه فى غير رحمة توسعه ضربا متواصلا. أخذته المفاجأة فلم يستطع الدفاع عن نفسه والآخر يزيد الضرب عليه ولا يرتدع. وقفت زوجته دلال تتثنى على باب شقتها شامتة بنتيجة مكيدتها. خرج سكان الطابق ونزل بعض ساكنى الأدوار العليا إلى المكان. تجمهر حشد كبير ومازال عاصم يرسل ضرباته للرجل المسكين. كلما أقدم أحدهم ليخلص البشوتى من يده تراجع عن أقدامه وتدخله. ادعاءات عاصم التى يرسلها بصوت مسموع للواقفين تجعله يعدل عن تخليص البشوتى منه. تناثرت من فم عاصم كلمات عن (شرفه) و(كرامة زوجته) التى يعرف كيف ينتقم لها. دلال تطلق افتراءاتها أمام السكان لتزيد حماس زوجها فى ضرب الرجل. تحدثت عن حثالة المجتمع - أمثال البشوتى - الذين يتطاولون على (الشرفاء) من أمثالها. نزف الدم من فم البشوتى

وتورمت عيناه من لكمات الـزوج الثائر. لم يستفد المضرور من تجمع السكان إلا زيادة إهدار كـرامته أمام الجميع. أخيرا تفرق الجمع دون معرفة تفـاصيل الموضوع بين الطرفين. بقى المسكين منـزويا بجوار الحائط تنزل دموعـه على الدماء التى تنزف من شفتيـه. التقط زنبيله مغـادرا المكـان ليركب عـربتـه ذات الحمير التى لا تقل عنـه ذلـة ولا مسكنة. حاول الصبى الحائر أن يستفسر من البشوتى عما حدث فلم يتلق منه إلا الصمت وزيادة الدموع المنهمرة.

اتجه البشوتى بعربته إلى قسم البوليس دون تكملة عمله المعتاد فى بقية البيـوت. دخل على المسئـول والوقت مـازال فى ساعـات الصباح الأولى من ذلك اليوم. الـورم الأزرق حول عينيه وبقـايا الدمـاء فى فمه والكـدمات واضحـة على وجهه. حكى مـا جـرى وما كـان والدمـوع تنهال على وجنتيـه من شدة التأثـر والانفعال. رفع غطاء رأسـه القذر ليشير إلى النتوءات التـى صنعتها لكمات عاصم فى جمجمتـه. من غير غطاء الـرأس تبدلت صـورة البشوتـى لتصبح صورة أخـرى قبيحة مخيفـة. ازداد تهوش شعره الأشعث المغبر بـالأوساخ والأتـربة. بـدا البشـوتى للمسئول كأنـه انسان يعيش فى الأدغـال والغابـات آت من العصور الأولى للتاريخ. أشار له متقززا بتغطية رأسه خوفا من زحف مـالا يعلمـه إلى خارج نطـاق الشعـر. غطى رأسـه كما أمـر وأمسك بتلابيـب السترة الطويلـة الفضفاضة التـى يرتـديها. أراد أن يخلعها ليكشف المستور من جسده تحت ملابسه البـالية. كلماته المصاحبة لأفعاله تؤكـد اصابة ضلوعه بالكدمات المؤلمة. السترة الممـزقة يتناثر منها فى المكـان أشياء دقيقـة عند تحريكهـا بأيدى البشـوتى. اشمأز المسئول من حركـاته وأمره بالكـلام دون الوصف والفعل. نسـى أمر المسئول ورفع طرف ردائه الأزرق ليريه سـاقيه المصابتين. ضاع أثر الإصابـات بين القشف المنتشر على طول الأرجل حتى الفخـذين. أخذ

يفتش عن إصـابة ظـاهـرة بين أرجله العظميـة الفقيرة فى اللحم. رفع إحـدى قدميـه ليريها للمسئـول فنهره الآخـر كى يكف عن الـوصف العملى. لم يتأكد المسئول ـ عندما رأى قـدم البشوتى ـ إذا كان بالقدم حذاء أو هى حافية لسيطرة اللون الواحد على الساق أجمعه.

أرسل المسئـول من يستـدعى السـاكن عـاصم ليستجـوبـه فيما ينسبـه إليه المجنى عليـه. حضر عاصم بصحبـة زوجته والبشـوتى جالس القـرفصاء بجوار الحائط فى غرفـة المسئول. تحدث فى إسـهاب وهمست زوجته فى أذن المسئول الذى هـز رأسه فى شبه اقتناع. أشار للمتضرر ليقترب فنهض يلملم أوجاعه العضوية والنفسية. وقف أمام ممثل القانـون آلا الحصول على حقـه المهضوم. بـوغت بأن المسئول يطلب منه التنـازل عن حقه فى مسألـة الضرب. حاول إظـاهر ثـورته بالاستشهاد بسكان البيت الذين تجمعـوا وقت ضربه. تنحى به/جانبا وبين له ادعاءات عاصم وزوجته دلال وعواقبها القانونية. عاد لثورته معلنا أنها محض افتراءات لا أساس لها من الصحـة. أشفق على ثورته وحاول إقناعه مـرة أخرى بالتنازل عن بلاغه. نسى البشـوتى حرمة المكـان.وعلا صـوتـه ليستردوا له كـرامتـه كإنسـان. تبدل أسلـوب المسئول في مـواجهة المسكين وتـولى المهام الطبيعيـة لوظيفتـه. هدر صوته فى المكان ليفيق محدثه من ثورته ويذكره بحجمه الحقيقى. بين له اصاباته وكدماته الملموسة لا طائل من ورائها. ادعاءات خصومه ـ وإن كانت غير ملموسة ـ إلا أنها أقوى أمام القانون وأردع فى الجزاء.

ومن بين دموعـه استمسك البشوتى بشهـادة سكان البيت الكبير. نفد صبر المسئول شارحا لـه أن شهادة السكان لن تجدى فيما تدعيه ضده السيـدة دلال. حضر السكان واقعـة الضرب من الزوج عـاصم لكنهم لم يشاهدوا مـا تدعيه الزوجة دلال. بذلك يكـون الزوج عاصم فى حالـة دفاع عن شرفه والانتقـام لكرامة زوجتـه. لم يفهم البشوتى

النصائح التى توجه إليه لسحب بلاغه والجنوح إلى السلم. أصر على موقفه مستنجدا بسكان البيت والاستماع إلى شهادتهم. الآلام المستمرة فى جسده جعلته يستميت فى استرداد حقه. استجاب له المسئول و أرسل يستدعى من حددهم البشوتى للإدلاء بشهادتهم. جاء بعضهم وآخرون كانوا قد ذهبوا لأعمالهم أو أنكروا أنفسهم منعا للحرج. الذين حضروا تخيروا ألفاظهم عند إجاباتهم على أسئلة المسئول. حقا لقد شهدوا برؤيتهم لواقعة الضرب لكنهم بهتوا من سماعهم لباقى القصة. اعتذروا جميعا عن معرفة حقيقة ما تدعيه الزوجة دلال على البشوتى الزبال. أخذوا البشوتى جانبا ونصحوه أيضا ـ كما نصحه المسئول ـ بالتخلى عن حقه. أفهموه الضرر الذى سيقع عليه والناجم عن مواصلة السير فى اجراءات النزاع بين الطرفين. اعتقد البشوتى أن السكان خذلوه وتكاتفوا مع جارهم ضده. أخيرا اقتنع وخرج من قسم البوليس يجرجر أذيال الخيبة والحسرة والألم.

انقطع البشوتى عن دخول البيت الكبير من تاريخ ذلك الحادث. لم تعد عربته ذات الأسرة الحميرية تنتظر فى مكانها التى اعتادت على الوقوف فيه. فى اليوم التالى خرجت من غرفتى ولحقت به عندما لم يتوقف بعربته. علمت منه ما حدث فى قسم البوليس وتعاطفت معه راثيا لحاله. أبلغنى قراره بعدم تجميع زبالة الشقق تأديبا لسكان البيت كله. فقد خذلوه مرتين ووقفوا منه موقفا سلبيا لم يكن يتوقعه منهم. لم ينقذوه من أيدى جارهم أثناء الضرب وراوغوا عند الإدلاء بشهادتهم فى قسم البوليس. تعاطفى معه جعله يسمح لى بتفريغ مهملاتى فى عربته دون بقية السكان. عرفت أهمية ومقدار ما خصنى به خلال الأيام القليلة التالية للحادث. بقيت الزبالة داخل الصفائح أمام شقق البيت دون تفريغ. القطط الضالة التى تجوس البيت ليلا

قلبت الصفـائح بحثـا عن رزقها. يصعـب على القطط رد الزبـالـة إلى داخل الصفـائح وتنظيف ما حولها. كـان البشوتى يقـوم بهذا العمل تطوعا منه دون أن يحس به أحد. فى اليـوم التالى تكدست أكوام أخرى من الـزبالـة فى أكيـاس بلاستيكيـة. جـاءت القطط بعـد نيام النـاس وقطعت الأكياس لتحصل على قوتها. تناثرت بقـايا زبالة اليوم الثانى على رصيـد زبـالـة اليوم السـابق. تـوالت أيـام فتخمـرت المخلفـات وتسربت الروائح الكـريهة إلى الأنوف. بدأ السكـان يقلقون من وضـع غريب لم يعتادوه من قبل ولم يتصوروا حدوثه.

قصـــدنى بعض السكـــان لتصريف قمامتهم فتمسكت بحـــدود اختصاصــاتى كبواب للبيت. حاول أحـدهم رشوتى خلسة لأقـوم له وحـده بهذا العمـل فى ظلمـة الليل. رفضت المبـــدأ معتـذرا وفى داخلى إحســاس بالتضــامن مع البشوتى المظلـوم. واحد من السكـان جمع قمامته وأخـذها معـه داخل مؤخرة سيـارته ليتخلص منهـا فى مكان بعيد. ساكن آخـر لم يقتنع بهذا التصرف، فإلى متى يظل هو المسئول عن مخلفات شقته. الأيـام تتوالى والزبالـة تزداد تكوما وتكـدسا أمام أبـواب الشقق دون إيجاد مخرج لتصريفها. تكـاثر الـذباب بصـورة مخيفـة ووجـد مرتعـا خصبـا لـوضع البيض والتنـاسل. تضخمت المشكلة وضجـت السيدات وتناقشت الأسر حـول ضرورة إيجاد حل فعال وسريع. رفض أبناء الأسر تولى المهمة ـ الحقيرة فى رأيهم ـ التى كـان يؤديها البشـوتى لهم. اقترح بعض السكـان الاتفـاق مع عربـة مرفق البلديـة التابعة للحكومـة للتخلص من قمامة شقق البيت. ذهب وفد من الساكنين لمقـابلة عمال النظافة التـابعين للمنطقة والمسئولين عن نظافتها. فى البداية تعلل العمال بأنهم موظفون حكوميون تنحصر مسئوليتهم فى تنظيم الشـوارع لا غير. بالترجى والاستعطـاف وافقوا واشـترطـوا أجرا يـوميا مـرتفعا مـن كل شقة بـالبيت. حسب الوفـد

المفـاوض الحسبـة الشهـريـة لما يطلبـه العمال عن كل يـوم لتفـريغ القمامة. وجـد السكان أن كل شقة ستـدفع شهريا عشرة أضعـاف ما كان يحصل عليه البشوتى.

تمرد أحد أعضاء الوفـد على الشروط المجحفة والتى يضعها عمال النظـافة. استنكـر آخر اعتـداء عـاصم بضرب البشوتى الطيب زبـال البيت. لعن ثالث افتراءات السيـدة دلال على الرجل المظلـوم واستبعد جـرأتـه على فعل مـا تـدعيـه عليـه. رابع منهم واجههم بتخليهم عن مساندة الرجل الضعيف فى محنتـه يوم استنجد بهم ووقفوا مكتوفى الأيدى أثنـاء ضربه وتهربـوا من قول كلمة حق فى قسـم البوليس. ثم مـاذا ينتظرون بعـد ذلك الا التعب والمعـاناة على مـا فـرطوا فى أمـر زبـالهم. دافع الأول عن رأيـه بـأن شهـادتهم ضـد عـاصم غير ذات موضوع أمـام ما تدعيه زوجته على البشـوتى. سمع العمال الواقفون نقاش أعضـاء الوفد ساكنى البيت الكبير. تسـاءلوا واستفسروا حتى وقفـوا على حقيقة مـا وقع للبشوتـى يوم الحادث المذكـور. بطريقـة تلقـائية اتفق عمال النظـافة على رأى جماعـى أعلنوه لـوفد السكـان. رفضوا شبـه الاتفاق المعقود شفاهــة وتراجعوا فى وعـدهم مهما كان الأجر المدفـوع. خاف كل منهم أن يقع له مـا سبق حدوثـه مع الرجل المظلـوم. فسرهـا وفــد السكـان تفسيرا غير التفسير وأسـاءوا الفهم والتحليل. ظنوا أن الزبالين تضامنـوا غيابيا مع ابن مهنتهم رغم عدم معرفتهم بـه. انقلب الوفد على بعضـه البعض بـاللوم والتأنيب بسبب فتح سيرة ما جرى وما كان. كروا عائدين ومشكلة الزبالة قائمة دون الوصول إلى حل.

مرور الأيام يرفع من الهرم الزبالى أمام الشقق والسكان عاجزون عن التصرف. الذبـاب يجهل طرق تحديـد النسل والحشرات والدواب يهددون بـانتشار الأمـراض والأوبئـة. ازداد تضخم المشكلة وبـات

الجميع يفكرون فى حل لما تــورطوا فيه . أحد السكــان الأذكياء فكر فى مخرج هلل لــه كـل السكــان. كل ســاكن يضع قمامتـــه فى كيس من (البلاستيك) أو داخل صحيفة قديمة ويربط على القمامة جيدا. يترقب حتى يتوغل الليل والناس أغلبها نيام فى سبات عميق. يلقى من نافذته بربطة قمامته إلى عـرض الشارع دون كلام. فى الصباح سيرغم عمال النظـافة على التقــاط الـربط وجمعها فى عـربتهم. بهذه الحركـة فإن الـزبالين الأغبيــاء قد قطعـوا أرزاقهم بأيـديهم عندمـا تضامنـوا مع البشـوتى الـزبـال. استراح كل السكــان لهذا الحل البسيط الـذى لن يكلفهم شيئـا مذكـورا. بل سيـوفر لهم الأجـر الشهـرى الذى كـان يتقاضاه زبال البيت. وعند تأخـر الوقت من ذات الليلة إنهالت أكياس القمامة لترتطم بأرضية الشارع. تحولـت قمامة البيت المتراكمة لترقد ساكنة فى انتظار حضور عمال النظافة.

صباح اليـوم التالى جاءت عـربة النظـافة الحكوميـة يسير خلفها العمال. عدد من سيدات البيت متناثرات فى شبابيكهن يتطلعن لنتيجة مـا تم تنفيذه الليلـة البـارحـة. بعضهن تتضاحكن بصـوت مـرتفع وأخريات تكتفين بالابتسام. بين دهشتهن وتعجبهن سارت العربة فى طريقها مبتعدة عن المكان. أحد أصحاب المحلات لفت أنظار العمال إلى أهــرامــات القمامة التى تخطـوهــا. تـوقفوا بعـربتهم وتهامســوا ثم افترشوا طـوار الشارع الا واحـدا منهم. ذهب زميلهم وبقيت العـربة وبقيــة العمال فى الانتظـار. يبدو أنهم أرسلـوا لـرئيسـهم ليحضر من يعـاونهم فى رفع تـلال الـزبـالـة. الأكيـاس والـربط تعترض طـريق المركبـات والسيـارات ولابـد لها من الاصطـدام بها. تمزق مـا كـان مربـوطا وانفرط عقـد الزبالـة بأرضية الشــارع على أوسع نطاق. لم يمض وقت طويل وعــاد عامل النظافـة مصحوبا بأحد رجــال شرطة المرافق. عاين الـرجل المكان وأثبت فى أوراقـه ما رأته عينــاه فى عرض

الشارع أمام البيت الكبير. استمع لأقوال عمال النظافة وكتب ما أملوه عليه ما حدث من سكان البيت بالأمس. دخل رجل الشرطة من باب البيت ونقل أسماء أصحاب الشقق من على صناديق البريد الصغيرة. من لم يجد اسمه يثبت رقم الشقة التى يسكنها دون حاجة إلى اسم صاحبها. أخيرا بدأ العمال فى رفع الزبالة إلى عربتهم ورجع رجل الشرطة من حيث أتى.

امتنع سكان البيت عن إلقاء أكياس القمامة إلى الشارع فى الليلة التالية. تأكدوا أنهم وقعوا فى مخالفة قانونية سيترتب عليها توقيع جزاء لا محالة. عاشوا مشكلة جديدة تتمثل فى نوع وشكل الجزاء الذى سيوقعه القانون على كل منهم. جاء اخطار من شرطة المرافق إلى كل ساكن للمثول أمام المسئول عن نظافة الحى. على كل ساكن أن يدفع غرامة قدرها عشرة جنيهات بالإضافة إلى عشرة قروش كرسم تحصيل. هذه الغرامة تعد تصالحا بين الساكن وشرطة المرافق على ما اقترفه فى حق المجتمع. اذا اعترض على الدفع ستتحول الأوراق إلى النيابة منها إلى مبنى المحكمة. سيحكم فى القضية بغرامة أكبر قد تصل إلى خمسين جنيها فى المرة الأولى. يمكن أن يزاد حكم الغرامة فى حالة تكرار ذات الفعل بإلقاء القمامة إلى عرض الشارع. دفع كل ساكن قيمة الغرامة صاغرا وتعهد ألا يعود إلى ما اقترفت يداه أو ما فعله أحد أفراد أسرته. عادوا بالتأنيب على الساكن الذكى صاحب اقتراح القاء القمامة إلى عرض الشارع. كاد الموقف ينتهى بمشاجرة بين السكان أجمعين لولا أنهم تذكروا ما دفعوه كغرامة لإلقاء القمامة. سيعودون لدفع غرامة أخرى فى حالة المشاجرة ولا فرق بين معتد ومعتدى عليه.

قصدنى السكان للتوسط فى حل المعضلة التى دوختهم وأرقت لياليهم. اتفقوا على ترضية البشوتى الزبال وكسب وده من جديد.

يعود إلى ســابق عمله لجمع قمامتهم ويتعهـدون بألا يتعرض لــه أحد بسوء فى المستقبل. سيرفعون أجره الشهـرى إلى مائة وخمسين قرشا وليس كما طلب هـو. يمكنه أيضــا الحصــول على يوم راحــة من جمع الـزبـالـة كأجـازة أسبـوعيـة. سألتهم عن التصرف فى حـالـة طلب البشـوتى اعتذار عـاصـم وزوجته لـه. أحنقهم سؤالى وأحســوا أننى أحاول رفع شأن من لا شأن له.

أفهمونى باقتصار دورى على إحضار البشوتى لمقابلتهم فى ساعة محددة. كـانت نظـــراتهم لى تـوحى بـادراجى ضمن هـــؤلاء الـذين يحتقـــرونهم ويحطـون من شأنهم. لكـن الأيـام بـــرهنت لهم زيف اعتقادهم عمن يحتلون أسفل دركـات المجتمع. وقررت التغاضى عن نظراتهم والسعى لعودة البشوتى الزبال إلى سابق عمله.

بكـرت فى انتظار عـربة البشــوتى لمقابلتــه ونقل رغبة السكـان فى مفاوضته. فى البـداية أبدى اعتراضا وتمنعـا لكنى ظللت أحاوره حتى اقتنع بـرأيــى لاسترداد كـرامتــه الجريحة. حضر فى الموعــد وقــوبل بالسهل والترحاب من الصغير والكبير. شرح له السكان ما اتفقوا عليه لكن عينيه بدا فيهما عدم الرضا والاقتناع. فطن أكثر من ساكن إلى ما تهدف إليه كلماته ونظراتــه الباحثة بين المجتمعين. تحرك إثنان منهم وأحضرا الساكن عـاصـم ليعتذر للبشوتـــى عما بدر منه. جـاء عاصم وطيب خاطر البشوتى أمام الجميع وطفـرت الدموع من عينى الزبال المسكين. دس عـاصـم فى يد البشــوتى مبلغا من المال فـرفضه فأعــاد دســه فى جيب البشــوتى. داعبـــه السكـان بقفشــاتهم وأرغمــوه على الابتسام بعد توقف الدموع. تغلبت طيبة قلب الرجل المسكين وسرعان ما عــادت المياه إلى مجاريها. ورحل البشـــوتى تاركـا الجميع على وعد منه لجمع قمامتهم من صباح اليوم التالى.

عادت الحمير الثلاثة العجفاء إلى سابق عهـدها بالوقوف أمام باب

البيت الـواسع، فى كل صباح يبكـر البشوتى بـالقفز من مكانـه خلف الحمير ملتقطا زنبيله الكبير، يصعـد بحماس إلى الطابق الأخير ليفرغ القمامة نزولا إلى الطـوابق التالية. جاءنى أحد الأيام بعـد انتهاء عمله بينما كنت واقفـا استنشق هواء الصباح العليـل. مد يده فى مـواجهتى فاردا راحة يده على آخـرها فرأيت فيها ساعة يـد ثمينة الشكل ذهبية اللون يبـدو أنها باهظـة الثمن. قـال أنه وجـدها فى صفيحـة القمامة الخاصة بالساكن عاصـم زوج دلال. اقترحت عليه مصاحبته لإرجاع السـاعـة لأصحابها فى نفس اللحظـة. تـردد فى قبـول اقتراحى ورأى قيـامى با لمهمـة وحـدى فهو لا يحب الـرجل ولا زوجتـه. تذكـرت أن عاصم خرج بسيارته منذ أول أمس ولم أره يعود إلى شقته بعد.

قبل تحرك عربة الزبالة بالبشوتى توقفت سيارة عاصم أمام باب البيت أسمعنى عاصـم تحية الصبـاح من خلف مقود السيارة ورددت على تحيته بـأحسن منها. ناديـت على البشوتى فجاء ليقـف بجوارى وأعدت السـاعة إلى راحـة يده ليعيـدها بنفسـه إلى صاحبهـا. أوقف عاصم محرك سيارته ونزل منهـا وداعب البشـوتى بعد إلقاء السلام. رد البشـوتى السـلام وانتظـر حتى يفـرغ عـاصـم من إخـراج عـدة صناديق كرتونية من مؤخـرة السيارة. أعاد غلق حقيبة السيارة ونظر إلينا طالبا يد العون والمساعـدة فاتجهنا للصناديق نرفعها كما طلب منا. مـد البشوتى يده إليـه والساعـة الثمينة تحتل راحته المفتـوحة. بتفاخر واعتـزاز با لأمانة أعلن عثوره عليهـا فى صفيحة قمامته. بهت الرجل لحظات وأمسك الساعة فى يده يتأملها بعينين ذاهلتين.

تركنـا عاصم دون كلمة وبخطـوات متثاقلة تحرك ناحيـة درجات السلم قـاصدا شقتـه. صعـد فى ذهول وأسرعت مع البشـوتى بحمل الصناديق الكـرتونيـة لنلحق به. أمام شقتـه أخرج المفتـاح من جيبه واضعـا إياه بحـذر شديـد فى قفل البـاب. فتح عاصم بهدوء ملحـوظ

محاولا عدم إحداث أى صوت. دخل متلصصا على أطراف قدميه وهو يصيخ السمع. تبادلت مع البشـوتى نظرات استفسارية صـامتة عن تصرفـات صاحب الشقـة. اقتربنا مـن الباب المفتـوح نتطلع بعيوننـا باحثين عن الرجل الذى سبقناه فى الدخـول. رأينا عاصم يهاجم غرفة نومه ويفتـح بابها ليفاجىء من بداخلهـا. سمعنا صراخ زوجته دلال وصـوت رجل أصـابـه التلعثم الغـاضب. لحظـات قليلـة من الجدال والصراخ بين امرأة ورجلين أحـدهما زوجها. تنطلـق عدة أعيرة نـارية لتستقـر داخل ضلوع بشريـة. يعـود الصراخ المرتفع مختلطا بنـزاع الموت المحقق.

.. ورأيت « الديناري » يدفع « أحـلام » أمامه بقسوة ، بعد أن لـوى ذراعيها خلف ظهـرها ، مقتحماً غـرفتي الزجـاجية ، يتبعـه رجالـه الأشداء الغـلاظ ، شاهـرين الرشـاشات ، وحـاملين قصعة كبيرة مملـوءة بالحطب وصفيحة مازوت .

وضعوا القصعة في منتصف الغرفة ، سكبوا المازوت فوق الحطب وأشعلوا النيران .

اقترب « أبو الروس » سمسـار الأراضـي ناحيتي ، وقال محذراً :

— آخر كلام ، « الديناري » وافق يشتري الفدان بأربعين ألف ، ده تمن متر واحد يقطعـه من الأرض لزوم قماين الطـوب ، بعدهـا غوروا بأرضكم يا غجر .

حاولت أن أرد ، لكن لساني التصق بسقف حلقي .

ضرب أبو الروس كفا بكف وصاح :

— صحيح بني آدم عينه فارغة مايملهاش إلا التراب .. !

أشار الديناري لـرجاله ، فقاموا بتجريـد « أحلام » من ملابسها ، دهنـوا الجسد العـاري با لمازوت ، أحكمـوا وثاقهـا إلى سيخ حديـدي طويل ، ورفعوها أفقياً فوق النار . حاوت أن أعتدل جالساً ، هالني أن أطرافي الأربعة مشدودة ومربوطة إلى قوائم السرير المعدني .

سمعت طرقات عنيفة على الحائط الـزجاجي ، حركت عيني ، رأيت رجال البلدة يدقون الزجاج بأكفهم ويصرخون ..

كانت ألسنة اللهب قد لامست جسد أحلام ، فسمعت نشيشاً اقشعر له بدني ، وشممت رائحة شياط جلدها الرقيق .

وعندما أطلقت أحلام صرخة مدوية ، كان رجالنا قد نجحوا فى تحطيم الحائط الزجاجى ، واشتبكوا مع رجال الدينارى ، الذين فروا هاربين أمام كثرة وجسارة رجالنا .

قفزت أحلام على السرير ، فكت وثاقى ، ارتمت فى حضنى ، أجهشت بالبكاء ، ربت عليها بحنو ، فتحول نشيجها إلى نهنهة .

تحاملت على ، وتحركنا ببطء فى الطرقة الطويلة المظلمة ، عند السلالم توقفنا كانت النار تزحف صاعدة السلالم نحونا ،فارتعبنا ، استدرنا نحاول الهروب ، لكن النار اندلعت من الخلف أيضا ، فتخشبنا مبهوتين .

تناهى إلى مسامعنا دقات طبول ودفوف ، تتخللها زغاريد مبحوحة لنساء بلدتنا ، فخبت النار واضمحلت ، انقشعت سحابة الدخان الرمادية ، فنزلنا السلالم نتراقص بخفة ، وعندما سمعنا صوتاً شجياً يغنى :

أنا كل ما أقول التوبة يابوى ترمينى المقادير ..

تأبطت أحلام ذراعى وهى تدارى ابتسامتها الخجلى فى الطرحة التل البيضاء ، وتهادينا إلى أسفل خفيفين كعصفورين يغردان .

وعندما غادرنا المستشفى ، رأينا أهل البلدة يقفون فى صفين طويلين ، ينثرون علينا الورد والملبس وذرات الملح ، والرجال يتقافزون بالعصى ويمارسون لعبة التحطيب أمام الموكب .

ولما اقتربنا من بوابة السكة الحديد ، خفتت الزغاريد ، تلاشت دقات الطبول والدفوف ، وتسلل إلى مسامعنا آهات مؤثرة لناى ، يصاحبها صوت المطرب الأسيان :

وبلدنا ع الترعة بتغسل شعرها ، جـانا نهار مقدرش يدفع مهرها ، يا هل ترى الليل الحزين ، أبو النجوم الدبلانين ..

فجأة .. انشقت الأرض عن رجال الديناري ، انتـزعوا أحلام بقوة ، جرجروها من ضفائرها إلى شـط الترعة ، قذفوا بها ، غطست ، وعندما طفت .. كان المازوت قد غطى وجهها الخمري وشعرها البني الأثيث .

أشعل أحـدهم عود ثقـاب ، رماه على سطح الماء ، فـاشتعل ، ظلت بقعـــة النـار تتسع حتى وصلـت إلى أحـلام ، فأمسكت بها النـــار ، وتحولت إلى كتلة من لهب ، فانفجرت صارخاً .

جففت الممـرضـــة عرقيّ المنثـال بقطعـة شاش ، وعنـدمـا لامست حبات العـرق ، حروق وجهي وعنقي .. كـززت على أسناني مـن شدة الألم .

سـألتها عن حالة « أحلام » قـالت أنها اجتازت مرحلة الخطر ، وأن حالتها تتحسن تدريجياً . أمرتني بالكف عن الحديث ، شمرت ذراعي ، وبحذر انغرست حقنة المهدئ في وريدي .

شعرت بأنـاملها تهدهـدني ، وغمرني فيض من طمأنينـة ، هدأت أعصابي المتوترة ، واعتراني صفاء وخدر لذيذين .

ومن جـديـد ، راحت المشاهـد تتـلاحق وتتـداح الصور المرعبـة ، ورأيتني واقفاً أمام بوابة السكة الحديد التي تشطر بلدتنا إلى نصفين ، سمعت جرس الإنذار يطلق رنيناً متقطعـاً ، والفانوس يرسل ومضات حمراء تحذيـريـة ، ورأيت سـائق سيـارة فنطـاس المازوت ينـدفع بالسيـارة في دوران حاد وعنيف ، محاولاً اجتياز البوابـة قبل وصول القطار ، فانقلبت السيارة على جانبها الأيمن .

فتح السائق بـاب الكابينة ، وفر هـارباً للناحية المقـابلة ، في اتجاه فيلا الدينـاري ، صاحب سيارة المازوت وقمائن الطـوب ، والعلاقات

المريبة مع كبار القوم ، والكلمة العليا ، واليد الباترة .

انسكب المازوت من الفتحة العلوية للفنطاس ، بغزارة .. شق طريقه فى مسارب ثعبانية ، ترسم خرائط فى أرض الشوارع والحارات والأزقة .

هرعت النساء والبنات يحملن الجرار والأوانى والصفائح ، يملأنها من شلال المازوت ، يرتقين السلالم الخشبية ، لتشوينها فى غرف الخبيز وفوق أسطح البيوت ، وأثناء ذلك... كان المازوت المتسرب من الصفائح والأوانى ، يرسم خطوطاً متعرجة على السلالم ، تنتهى فوق الأسطح المتلاصقة للبيوت الواطئة المسقوفة بقش الأرز وحطب القطن .

تحلقنا حول السيارة المقلوبة ، سألنى الرجال عن السائق ، جرينا صوب فيلا الدينارى ، حاملين العصى والفئوس ، طرقنا الباب الحديدى بعنف ، فردت علينا البنادق الآلية والرشاشات من مزاغل برج الحمام ، فانبطحنا وزحفنا على البطون ، فى محاولة لتطويق الفيلا .

ما إن لمحنا دخاناً كثيفاً ينبعث عند بوابة السكة الحديد ، حتى انتفضنا وانطلقنا عائدين نستجلى الأمر ، كانت نوافير النار تتدافع من فتحة الفنطاس وتلفح وجوهنا بسعيرها ، ظللنا نقذفها بحفنات التراب بلا جدوى ، بدأت النيران تتعقب خيوط المازوت ، آخذة طريقها إلى مداخل البيوت والزرائب ، ظلت النيران تسرع ، تلهث ، تفح ، صاعدة السلالم ، حتى وصلت إلى أماكن التشوين ، بضع ثوان .. وانفجرت صفائح وأوانى المازوت ، وتطايرت مثل القنابل فوق أسطح البيوت .

دقائق معدودة .. وأصبحت بيوت البلدة كلها ، قطعة من جهنم ،

آتـون جبار ينفث حمماً ملتهبـة ودخـانـا كثيفاً أسـود ، ورذاذاً غطى وجـوه الناس والغيطان والمساقى والترعة العمومية بطبقة سميكة من المازوت اللزج .

وسمعت صراخ جدتى :

— عليه العوض فى القطـن يا ولاد ، الدخان والهبـاب خنقوا القمر، وإزاى اللوز راح يفتح يا ولداه ..!

ذكـرنى نواح جـدتى ، بتلك الليلـة المشهودة والمحفـورة فى أعماق الذاكرة ، حين جلسنا على المصطبة أمـام الدوار ، أنا وأحلام وجدتى ، كان القمر قد استوى على عرشه المكين فى كبد السماء .

فـردت جدتـى ذراعيها فـدخلنـا تحت جناحيهـا ، رفعت وجههـا المتغضن للسماء ، ارتعشت خلجاتها بنشـوة غامرة ، وقـالت بصوت متهدج :

— بصوا كويـس للقمر يا ولادى ، دققوا ، مش حتصـدقوا ، الليلة بدر التمام ، بعد شوية ، راح يناغش القمـر لوز القطن بنوره ، ساعتها ـ بأمر ربى ـ يتفتح اللوز على طول ، سبحانه عالم الأسرار .

بعـد أن تناولنـا فتة الـرقاق بـاللبن الحليب مع جدتى انسحبنـا ، تسللنا هاربين صوب غيط القطن البحرى .

قالت أحلام غير مصدقة :

— معقول كلام جدتى .. !

رددت عليها :

— الميه تكدب الغطاس .

عند شجرة الجميـز العجوز الحارسة للساقية العتيقـة .. توقفنا ، أسندت أحـلام ظهرهـا ، تشابكت أصابع يـديها فوق رأسهـا ، فبان خدها الأسيل شهياً ونابضاً فى الضوء الآسر .

اقتربت ، وبحـركـة مبـاغتـة طـوقتهـا بـذراعى ، تحسست خدها المتوهج بشفتى ، أحنت رأسها ، وبحركة خاطفة تملصت ، انسلت من بين ذراعى كمهرة حرون ، وانطلقت تعدو بـرشـاقة على المشاية ، حين سقطت .. اصطدمت بها ، وقعت فوقها ، تـدحرجنا متلاصقين ، كانت أنفاسها تتسارع وصدرهـا يعلو ويهبط بطريقة أخافتنى ، فكففت عن المطاردة .

كانت أنفاسها اللاهثـة المضطربة تتردد فى صدرى ، لثمت جبينها وبين الحاجين ، فهـدأت تمامـاً وأغمضت عينيهـا ، وقبل أن تتماس الشفاه .. أفقنـا على صوت طـرقعات واهنـة ، تشبه زقـزقة عصـافير الجنة ، مع الوقت تزايد معدل الطرقعات وأصبحت أكثر وضوحاً .

أصخنـا السمع واعتـدلنا جـالسين ، رأينـا مـايسلب اللب ويلجم اللسـان ، كانت لـوزات القطن تتفتح وكأن عصـا سحـرية تلمسهـا ، فتستيقظ من سباتها ، ظللنا نرقب اللوحة الربانية الحية مأخوذين .

لم نـدر كم مـر علينا من الـوقت ، حين رجعنـا متعـانقين كنا قـد ارتوينا تماماً .

وأشعر بالدفء يسرى فى أوصالى ، وتـرتفع درجة حرارة أعضائى شيئاً فشيئـاً ، وتجتاحنى حمى تصـل حد الاشتعـال ، وأرى جسدى وقد اكتسى بحمـرة قانيـة ، سرعان ماتحولـت إلى الأزرق ، ثم مالبث الدخـان يتصاعد من أعضائى فى خيـوط رفيعة حلزونيـة ، فارتعبت ، ازدادت خيوط الدخـان سمكاً ، فتيقنت أننى مشتعل لامحالة ، انفلتت منى صرخة استغاثة مجنونة .

هزتنـى الممرضة بلطف ، وضعـت الترمومتر تحت لسانى ، قـالت للطبيب أن حـرارتى ارتفعت درجتين ، فأمـرهـا بحقن كيس المحلـول بأمبول نوفالجين .

ومن جـديد تصطخب الأشيـاء داخلى ، تتقـافز الصــور الرهيبـة وتتداخل ، هـاهم الرجـال يسحبون المواشى المشتعلـة من الزرائب ، هاربين فى اتجاه الترعة ، لكن اعتراهم الذهـول حين شاهدوا أن مياهها مغطاه بطبقـة من المازوت المشتعل ، فهـاموا على وجوههـم ، والنساء يحملن الصغـــار على أكتـــافهن ويمسكن بصرر خبـأن فيهـــا أغلى مـايمتلكن ، والشبـاب يصـارعون النـار فـوق الأسطح ، ويطلقـون الأعيرة النارية على الحمام المشتعل .

طـوفـان رهيب من البشر المذعورين ، يتخبطـون ، يستيقظـون ، يتصايحون ، يتدافعـون ، يتذرعون بعبارات الاستغفـار والاسترحام للسماء ، لعلها تكشـف عنهم الغمة ، يلوحـون بأيديهم بـإشارات غير مفهومة ، وتنطلق كلماتهم المبتورة مستنفرة ، والبنات يلطمن الخدود ويلطخن الرؤوس بعجينة التراب الممزوج بالرماد والمازوت .

وعنـدمـا وصلت سيـارة إطفـاء واحـدة ، شرعت تضخ الماء فـوق النيران التى أوشكت على الخمـود ، فـراحت ألسنـة اللهب تنـدلع من جديد وتزغرد ، صرخنا فيهم :

— دى نار مازوت ياعالم ، يلزمها رغاوى .. !

لملموا الخراطيم وانسحبوا ، تركـونا فى صراع غير متكافىء مع نيران شرسة وعنيدة .

وسمعت صراخ جدتى :

أحلام بنت عمك مغمى عليها فى القاعة القبلية .

اندفعت ناحية الغرفة ، دفعت الباب بقدمى .

كانت أحـلام مسجاة على السرير ، والغـرفة معبقة بـدخان كثيف خانق .

هـــززتها ، لم تستجب ، رفعتهـا من الخصر ، حملتهـــا على كتفى

وهرولـت مندفعاً نـاحية البـاب . فى منتصف حوش الـدوار ، سقطت كتلة مشتعلة من السقف ، وأمسكت النار بفستانها النايلون .

اختل تـــوازنى ، أسرعت الخطى ، فأنكفأت قبل أن أصــل إلى عتبـة الدوار ، تهاوت علينا عروق السقف والتعـريشة المشتعلة ، ولم أشعر إلا وأنا ممدد بجوارها فى سيارة الإسعاف .

سمعت همهمات عند وصولنـا إلى المستشفى ، بأن نصفها السفلى أصيب بحـروق من الدرجـات الثـلاث ، وأنهم سيضعونها فى خيمـة اكسجين .

غامت بى الـدنيا ، وسمعت مكبر الصـوت الذى أطلقه الـدينارى ، ينادى بأنه مستعد لعـلاج المصابين على نفقته ، مهما كلفه ، حتى وإن لزم سفـر البعض للعلاج بالخارج ، كما أنـه يتعهد ببنـاء البيوت التى احترقت أو تهدمت ، بـــالطـــوب الأحمر والأسمنت المسلـح ، وأنـــه سيصرف إعانات فورية لإعاشة المتضررين .

هلل الرجال فرحين بالعرض المغرى ، لكننى صرخت فيهم :

— احذروا يـا خلق ، إنها خدعة جـديدة ، سيكـون ثمنها أرضكم التى ستلتهمهـا قمائنـه ، من ذقنكم سيفتل لكم حبـالاً تشنقـون بها أنفسكم ، لابد أن نسقيـه من نفس الكأس التى تجرعناهـا ، إننى أشك أنه وراء هذه الكارثة ، ربما كانـت خطة شيطانية للاستيلاء على أرض بأبخس الأثمان ، من يـدرى ربما كـان السائق وسيـارة المازوت هما وسيلته لإحراق بلدتنا بما فيها ومن فيها .. ؟!

ارتسمت علامات الدهشة والجدية على تقـاطيع الوجوه الغاضبة ، زاموا فى صوت واحد :

— النـار ولا العـــار يـا دينـارى ، على البـــاغى تـــدور الـدوائر يا دينارى .

اشتعل الـرجـال حماسـة ، حملـوا البنـادق والعصى والفئـوس ، انخرطوا فى طوفان هادر مدمـدم حتى وصلوا إلى الفيلا ، قذفوا بكرات مشتعلة مشبعة با لمازوت ، أمسكت النيران بالأشجار المسيجة للفيلا ، ثم زحفت حثيثـا للداخـل ، ورأينا ألسنـة اللهب تتعـاظم وتزغـرد من النوافـذ الزجاجية ، فهللنـا وكبرنا ، وعندما تحولت الفيـلا إلى كتلة من النار ، ضربنا حصاراً حول الباب الحديدى الضخم نترقب خروجه ..!

قالوا له أذهب إلى الانتخابات .

عبدا لمتعال رجل فلاح غلبان اجير يطيع الأمر.. ذهب.

قالوا له لا تتأخر .

هب عبدالعـال من نومه قبـل أن يصيح الديك. لبس جلابيته الوحيدة، هرع إلى لجنة الانتخابات.

قالوا له صوتك امانة فى عنقك .

ظل عبـدا لمتعال لا يهز عنقـه لمدة أسبـوع. حتى يحتفظ بـالأمانـة سليمة سالمة، ويسلمها إلى الحكومة .

قالـو له صوتك سيحسم نتيجـة الانتخابات لم ينطق عبـدا لمتعال. هو طـوال عمره لا ينطق. لكى يستطيع أن يكـون صوتـه حاسما كما يطلبون .

فى اللجنة امسك عبـدا لمتعال بـورقة الانتخـابات تفـرج عليها كما يتفرج كل مرة. أشـار مساعد رئيس اللجنة إلى الرسـومات الموجودة. قال له.. ضـع علامة صح أمام الرمز الذى تختاره. لم يفهم عبدا لمتعال شيئا. هـو لا يريد أكثر من صـورة النخلة العالية ليضـع تحتهـا خطا ملويا عند أسفله كالمغرفة حسب أوامر العمدة .

فى الركن خلف الستارة أخذ يبحـث. عن النخلة . حتى هذه اللحظة لا يعرف عبدا لمتعال ماذا حدث له ؟

تذكر وهو خلف الستـارة المرشح الاخر الذى حضر إليهم شد على يد رجال القرية الذين اتوا للفرجة فى السرادق .

عندمـا اتى دور عبدالمتعال. أحسّ بقبضـة المرشح القوية. قـال له انت صـاحب القرار أنت الذى ستقرر من سينجح فى الانتخابات .

ليلتها لم ينم عبدالمتعال. يتقلب فوق الفرن يتذكر كلمات المرشح.. لأول مـرة يشعر انـه مهم.. انـه ليس مجرد الثـور والبجم كما يدللـه العمدة. يتعجب بزهو انه هو الذى سيحسم نتيجة الانتخابات .

رغم أن عبدالمتعال ضخم كالثور إلا انه طيب جدا .

طوال النهـار يناديه العمـدة. واد يا عبـدالمتعال. أنت بجم لا تفهم. أذهب. تعالى.. أنت جاموسـة لا تحس. وعبدالمتعال لايردد غير حاضر يا عمدة .

فى تلك الليلة التى يشتريها بعمره كلـه. أحس. لأول مرة يحس. انه أفضل من العمـدة. وأقـوى من العمـدة.. كيف لا.. والمغـرفـة التى سيضعها تحت الرسم هى التى ستنجح صاحب الرسم !!

أحس عبدالمتعال بـالورطة التى وضعه فيهـا التفكير والتذكر. أول مرة يفكـر. هذا مـا جناه من التفكير والتـذكر. انـه طوال عمـره يأكل ويشرب ويشتم وراضى أو غير راضى بحياته لا تفرق هو لا يذكر أنه فكر مـرة أنه راض أو غير راض بحيـاته وهل بهذا يفـرق عن الحمار الذى عنـده فى البيت !! هذا مـا أخذه من التفكير والقـرف. يشتم نفسه بنفسه. جلبه لنفسه. كان مرتاحا. لا يفكر ولا يتعب .

قالـوا له ضع العـلامة تحت النخلة العـالية. هـه لن يضعها تحت النخلة. سيضعهـا بمزاجه انه يحب صـورة الجمل. هو الوحيـد الذى يمكن أن يمثله.

أخـذ يبحث عن صـورة للجمل لم يجد. الله يخرب بيـوتهم لا أحـد يمثله فى هذه الانتخـابات. كلها صور لا تمثلـه. السيارة . الطائرة هل هـو ركب فى حيـاتـه سيارة ليركب طـائر.. وقعت عينـاه على صـورة

ميزان.. ليكن الميزان.. لعن الصور والرسم والانتخابات. حتى الميزان فى الصورة غير معدول.

لقد مل عمره كله هذه الموازين المقلوبة.

ولو لن يضع العلامة تحت النخلة العالية.. يريد أن يعمل شيئا مرة من نفسه لا يؤمر به . طوال عمره يطيع الأوامر.. انه مثل الثور فى الساقية . يجرها إلى أن يتوقف قلبه. لا يملك أن يتحرر منها. انه مثل البهيمة التى تجر الساقية. لا عقل ولا حرية ولا إرادة يمشى ويسير ويدور بأمرهم ورغبتهم .

لا لن يكون مثل البهايم ولن يضع العلامة تحت النخلة العالية .

هو يريد أن يحس انه استطاع أن يقول لا. حتى ولو لم تكن امام أحد. يكفى أنها أمام نفسه. طوال عمره يقول نعم. ولم يتحسن حاله.. ولن يكون اسوأ مما هو فيه يقول نعم ويحس طعمها فى حلقه مر كالحنظل. سيقول مرة فى نفسه لا.. لا.. لا..

وجد عبدالمتعال فمه يفتح وحده مثلما تصل الكهرباء المقطوعة فجأة لراديو العمدة.. لا..لا..

الله جميلة كالاغنية.. لا ياحبيبى لا. عبدالحليم يغنيها.. نار ياحبيبى نار.

أحس بطعمها جميل ولذيذ. أول مرة يتذوق طعم «لاو كررها منتشيا.. ما هذا الشعور الساحر؟. ما هذه الكلمات المسحورة التى تجعله ينتشى كما لو كان قد شرب جردلا من البوظة ؟

فى قمة نشوة عبدالمتعال. هدر صوت العمدة. تزلزل كيان عبدالمتعال كله.

واد يا عبدالمتعال . لك ساعة بالداخل يا بجم .

رد عبدالمتعال وهو يلملم نفسه .

ماهو يا عمدة خلاص .

ارتجف عبدا لمتعال كالمحموم. شعر بالأرض تهتز تحته. اسرع بالقلم تحت العربية. أى رسم الا لنخلة العالية. لتكن العربية. يكفى أن الرجل شد على يده قال له كلاما يساوى عمره كله.

دفع عبدا لمتعال يده لترسم المغرفة تحت العربية. تسمرت يده تحت الصورة. كاد يصرخ غيظا.

كرر المحاولة.. لم يستطيع .

طفح جسمه كله بالعرق فى عز الشتاء .

كل أعضاء عبدالعال ترتعش. لا يقوى حتى على امساك القلم .

تحركت الستارة. برز وجه العمدة. فم عبدا لمتعال يرتعش ولا يتكلم دوت يد العمدة على قفا عبدا لمتعال فاتقد نارا.

شد العمدة الورقة من عبدا لمتعال . أشار إلى أحد الرسومات .

— هذه هى النخلة يا بجم .

سحب العمدة القلم منه وضع العلامة بنفسه تحت النخلة .

ابتسم العمدة لرئيس اللجنة .

— ألم أقل لك انه كالثور لا يفهم شيئا . .

عندما زارنى الأرق فى تلـك الليلة الصعبة ، لجأت إلى اليوجا أحاول تطبيق بعضاً ممـا فهمته . قالوا أنه يمكن أن يصـدر العقل أوامره لأعضـاء الجسم بقـوة وحسم فتطيع حتى أنه يمكن للإنسـان أن يخفض عدد نبضات القلب أو درجة الحرارة .

فى تلك الليلـة الـرهيبـة أرقت كثيرا حتى تـوتـرت ، أحاول أن أجذب النوم دون جدوى . وخطر لى استخدام اليوجـا فى إصدار أوامـر العقل إلى الجسم أن ينـام ، ولذت لى الفكرة ، فأصـدرت الأمر إلى أصـابع القدمين أن تنـام ، ثم تبعتها إلى السـاقين والـذراعين والبطن وكل أجـزاء جسـدى . اكتشفت أن أعضـائى قـد استجـابت ونـامت كلهـا ، حتى أنى لم أستطع أن أرفع ذراعى لأعلى ، فقد استجـاب ونام ، ولم يعـد يتلقى أوامر المخ . فـرحت بـالاكتشاف وتأكدت أن جسمى كله قد نام ، وتبقى العقل متيقظا احترت فيه كيف أجعله ، يقر ويهدأ ثم ينام هو الآخر ، حاولت ، ولا فائدة .

مضت ساعات وأنـا على هذه الحالة بعقل نشط وجسد هـامد نائم ثم أحسست الـرغبة أن أتقلب ، ولم يستجب جسـدى للمحاولـة أبدا ، وبدا ذلك غريبا للغاية فاستسلمت . انتابنى بعدها شعور بالحاجة إلى أن ألبى نداء الطبيعة ، وتزايـدت رغبتى أن أقوم إلى الحمام . وعاندنى الجسد أن يستجيب ، بينما رغبتى تتزايد حتى أصبحت ضرورة ملحة وإلا .. !

لماذا استجـاب الجسد لـلأوامـر بـالنوم ، ولم يستجـب للأوامـر

بالحركة ، والنظرية واحدة هى تحكم العقل بالارادة القوية فى كل الجوارح حاولت أن أنسى احتياجى للحمام دون جدوى حتى أصبح ذلك أملاً بعيداً . أحسست بمثانتى تكاد تنفجر من الضغط داخلها فى احتياج ملح وعنيف لأن أتحرك ، ولكن بلا فائدة فالجسد كله قد تصلب نائما . هذه التجربة اللعينة القاسية جعلتنى أحس آلاف المسامير تنغرس فى جسدى .

فجأة تغير الوقت والمكان ، وجدت نفسى أرقد جوار جدار المنزل ، نائما على ظهرى فى الحديقة ، أرى السماء والنجوم وأسمع حفيف الشجر ، ورأيت أحد الأطفال العفاريت فوق سطح المنزل يمسك بيده حجراً كبيرا يصوبه ويتحرك به ليسقطه بأحكام نحوى .

رأيت الحجر يسقط، حاولت أن أتزحزح قليلا لأتفادى الصدمة. الجسد كان نائما، وهوى الحجر فوقى تماما وأصابنى، وصرخت بقوة ولم تخرج الصرخة أبدا، بل خرجت دفعة من هواء الألم القاتل شمل جسدى كله. أريد أن يسعفنى أحدهم أئن، أتأوه، أنادى ولا مجيب. كل ذلك ولم يفارقنى الشعور القوى بالحاجة إلى الحمام ويضاعف من عذابى .

آهة طويلة عميقة سمعتها تخرج منى عندما أحسست بتيار من الماء الدافئ ينساب فوق فخذى، فشهقت، هل أنا..، شعور لم أحسه منذ أكثر من خمسين عاما، والبلل بالماء الدافئ يغمر نصفى الأسفل والشهقات وآهات العجب والأسف والخجل لما أنا فيه تصدر منى بلا توقف .

يدان قويتان إحداهما فوق كتفى تهزنى بشدة، والأخرى أصابعها فوق عينى تشد الجفون لأعلى أن أستيقظ. وجدت روحى تعود إلىّ كما لو كانت آتيه من قعر بئر عميقة، وصوت زوجتى الملتاعة فى همهمات بعيدة تهمس أن أفيق. وأفقت لأجد العرق يغمرنى وأنفاسى

متهدجة، والرعب يتملكنى .

قالت أرعبتنـــى كثيرا، ظننت أنك.. شـددت الغطاء فـوقى ليسـترنى، وأمتـدت يدى فى حـركة مسروقـة تتحسـس مـلابسى. المفاجأة. لقـد وجدت ملابسى جافة، كلها جـافة تماما. وانقلبت أناتى وتأوهاتى إلى قهقهـة عاليـة وقفزت بسرعـة أجرى فى اتجاه الحمام. قـالت زوجتى. اللهم اجعله خيرا .

الفهـــرس

صفحة

● حكايتى مع هذه القصص (بقلم : فتحى غانم) .... (٦ [illegible])

١ ـ الأبـــــراج .... ([illegible])

٢ ـ ألغـــــاز .... ([illegible]٠)

٣ ـ مسألة بسيطة .... (٥٩)

٤ ـ اهلا يا باشا .... (٦٥)

٥ ـ الثـأر والليـل .... (٧٥)

٦ ـ جسد آخر .. وحيد .... (٨٥)

٧ ـ إضراب الزبالين .... (٩٩)

٨ ـ طوفان النار .... (١١٩)

٩ ـ عبد المتعال ونخلة الانتخابات .... (١٣١)

١٠ ـ يوجـــــا .... (١٣٧)